

## الجزء الخامس عشر

### سورة الإسراء - سورة بني إسرائيل

هي مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال مقاتل إلا ثمانى آيات من قوله : وإن كادوا ليفتنونك إلى آخره .

وعدد آياتها عشر ومائة . أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر ، وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى .

ووجه مناسبتها لسورة النحل وذكرها بعدها أمور :

(١) إنه سبحانه ذكر في سورة النحل اختلاف اليهود في السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التي شرعها لهم في التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل .

(٢) إنه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكربهم في السورة السالفة - ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

(٣) إنه ذكر في السورة السالفة نعماً كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضاً نعماً خاصة وعامة .

- (٤) ذكر هناك أن النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس - وهنا ذكر: وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين .
- (٥) إنه في تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وإبن السبيل .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَمْرٌ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

### شرح المفردات

سبحان الله : أى تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكماه ، والإسراء كالمسرى : السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

### الإيضاح

(سبحان الذى أمرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) أى تنزيها للذى أمرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، فى جزء من الليل من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ورجع فى ليلته ، وتبرئة له مما يقوله المشركون من أن له من خلقه شريكا وأن له صاحبة وولدا .

(الذى باركنا حوله) أى الذى جعلنا حوله البركة لسكانه فى معاشهم وأقواتهم وحرورهم وغرومهم .

( لتريه من آياتنا ) أى كى نرى عبدنا محمدا من عبرنا وأدلتنا ما فيه البرهان الساطع والدليل القاطع على وحدانيتنا وعظم قدرتنا .

( إنه هو السميع البصير ) أى إن الذى أسرى بعبدته هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة فى سرى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، البصير بما يفعلون ، لا تخفى عليه خافية من أمرهم ولا يعزب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فهو محيط به علما ومحضيه عددا وهو لهم بالمرصاد ، وسيجزئهم بما هم له أهل .

### تحقيق ما قيل فى الإسراء والمعراج

اعلم أن هاهنا أمرين :

(١) إسراء النبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة .

(٢) العروج به والصعود إلى السماء الدنيا ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام بعد وصوله إلى بيت المقدس ، ولم يذكر ذلك هنا ، وسيأتى بيانه فى سورة النجم ونفصل فيه القول تفصيلا إن شاء الله .

### آراء العلماء فى الإسراء

هاهنا أمور — مكان الإسراء — زمانه — هل كان الإسراء بالروح والجسد أو بالروح فحسب ؟ :

(١) يرى جمع من العلماء أن الإسراء كان من المسجد الحرام — وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب .

(٢) أما زمانه فقد كان ليلة سابع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن البصرى أنه كان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم .

(٣) أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناما ، ولهم

على ذلك أدلة :

( أ ) إن التسبيح والتعجب في قوله : سبحان الذى أسرى بعبده - إنما يكون

في الأمور العظام - ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن ولم يكن مستعظماً .

( ب ) إنه لو كان مناماً ما كانت قریش تبادر إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن

كانوا أسلموا ، ولما قالت أم هانىء لا تحدث الناس فيكذبوك ، ولما فضل أبو بكر

بالتصديق ، وجاء في الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « لقد رأيتنى في الحجر وقریش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من

بيت المقدس لم أثبتها ( لم أعرفها حق المعرفة ) فكُربِت كُرباً ما كُربت مثله قط ،

فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألتنى عن شىء إلا أنبأتهم به » الحديث .

( ح ) إن قوله ( بعبده ) يدل على مجموع الروح والجسد .

( د ) إن ابن عباس قال في قوله : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً

لِلنَّاسِ » هي رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ويؤيده

أن العرب قد تستعمل الرؤيا في المشاهدة الحسية ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائداً :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده      وبشر قلباً كان جما بلائه

( هـ ) إن الحركة بهذه السرعة ممكنة في نفسها ، فقد جاء في القرآن أن الرياح

كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة ، فقد قال

تعالى في صفة سير سليمان عليه السلام : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ » وجاء فيه

أن النبى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام

في مقدار لمح البصر كما قال تعالى : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ

بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز

لدى جميعهم .

ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :  
 (ا) إن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سئل عن سرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رؤيا من الله صادقة - وقد ضعف هذا بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره في مثل هذا .

(ب) إن بعض آل أبي بكر قال : كانت عائشة تقول ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أسرى بروحه ، وتقدوا هذا بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(ح) إن الحسن قال في قوله ( وما جعلنا الرؤيا ) الآية إنها رؤيا منام رآها ( والرؤيا تختص بالنوم ) .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبد محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هناك بن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلا على نبوته ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكرا عندهم ولا عند أحد من ذوى النظرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرأى منهم في المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل - وبعد فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره - إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد اهـ .

والخلاصة إن الذي عليه العول عند جبهة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لأنما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله يصلي في قبلته تحية المسجد ركعتين ثم ركب البراق وعاد إلى مكة بفلس .

## إمامة في المعراج

يرى بعض العلماء أن عروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع كان بجسده وروحه يقظة لأنما للدليلين :

(١) آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده ، والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلًا بهما .

(ب) الحديث المروي في الكتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرها ، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام .

وأنكره آخرون وأثبتوا أن المعراج كان بالروح فحسب لوجوه :

(١) إن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة .

(٢) إنه لو صح ذلك لكان أعظم المعجزات وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناس حتى يستدل به على صدقه في ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه فيه أحد ولا يشاهده فيه مشاهد ، فإن ذلك عبث لا يليق بحكمة الحكيم .

(٣) إن الصعود بالجسم إلى العالم العلوى فوق طبقات معينة مستحيل ، لأن الهواء معدوم فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحى أو يتنفس فيه .

(٤) إن حديث المعراج اشتمل على أشياء في غاية البعد :

(١) شق بطنه وتطهيره بماء زمزم ، والذي يغسل بالماء هو النجاسات العينية ، ولا تأثير لذلك في تطهير القلب عن العقائد الزائفة والأخلاق الذمومة .

(ب) ركوب البراق ولا حاجة له بذلك لأن العالم العلوى فى غنى عن ذلك .  
 (ح) إنه تعالى أوجب خمسين صلاة ، ولم يزل محمد صلى الله عليه وسلم يتردد بين الله وموسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه السلام — وهذا غير جائز كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى لأنه يقتضى نسخ الحكم قبل العمل به وهذا بداء محال على الله .

(د) لم يقل أحد من المسلمين بأن الأنبياء أحياء بأجسادهم فى العالم العلوى ، وإنما الحياة هناك حياة روحية لا جسمانية ، والتخاطب والكلام معهم والصلاة بهم من الأمور الروحية لا الجسمية ، إذ لا يعقل غير هذا — وبهذا يثبت المعراج الروحى لا الجسمانى .

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العقلية بأن هذه معجزة ، والله تعالى قادر على نخرق سننه بسنة أخرى ككل معجزات الأنبياء من انقلاب العصا حية ثم عودتها فى مدة قصيرة عصا صغيرة كما كانت .

ويبقى أمر الحديث واشتماله على أمور غريبة لا حاجة إليها فى تصديق النبوة ، والمحاورة فى فرض الصلوات وانتقالها من خمسين إلى خمس مما يستدعى رد الحديث وعدم النظر إليه لاضطراب متنه كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى وإن صححه رواية الحديث باعتبار سنده .

## عظة وذكرى

إنا نتفق قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين لنستخلص منهما أمورا هى الغاية فى العظة والاعتبار :

(١) إن هاتين الرحلتين الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ليخص الله المؤمنين ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى

دار الهجرة والانصواء تحت لوائه وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام وتكاليف شاقة من جزوب دينية وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء وإنشاء دولة تتبلع العمور في ذلك الحين شرقا وغربا .

(٢) إن الله أطلع رسوله على ما في هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درسا عمليا لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر، فإن التعليم بالمشاهدة أحدي أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم أو يسبح في أرجاء المعمورة أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء — فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التي لا تصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا »

(٣) إن ما يجدر كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طي المسافات بوسائل الطائرات وقطع المحيطات في قليل الساعات من قارة إلى قارة ومن قطر إلى قطر ليجمعنا نعتقد أن ما جاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي ليست بالعزيمة الحصول أو الأمور المستحيلة .

(٤) إن روحانية الأنبياء تغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملاء الأعلى لتخلخل الهواء واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة في عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشري إلى تحديدها وإبداء الرأي فيها وإنها تفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق في استقصاء آثارها .

(٥) إن ما جاء في الحديث من أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلى إماما بالأنبياء في عالم السموات ليرشد إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة

ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه وصاروا مؤتمين به .

(٦) إن في هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكير وهو أن جميع الأنبياء كانوا في وفاق ووثام في الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذي أرسلهم — أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلما لاجربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذي جاءت به هو الشريعة التي يقضى بها بين الناس ، كما هو المتبع في القوانين الوضعية فإن الذي يجب العمل به هو القانون الأخير وهو يلغى جميع ما سبقه .

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا (٢) ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهِمَا بَمَثَلْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَهْوَالٍ وَبَيْنِنا وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنَّ أَحْسَنَهُمْ أَحْسَنُكُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم ، وَإِنْ عُدتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

## شرح المفردات

الكتاب: هو التوراة، وكيلا أى كفيلا تكونون إليه أموركم ، شكورا أى كثير الشكر ، وقضينا أى أعلمنا بالوحي ، لتعلمن أى لتستكبرن عن طاعة الله ، والوعد أى الموعود به وهو العقاب ، والبؤس والبأس والبأساء: الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، جاسوا الديار: توسطوها وترددوا بينها، والكرة: الثؤلة والغلبة؛ وأصل الكر العطف والرجوع ، والنفير والنافر: من ينفّر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، والتنبير: الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شىء كسرتة وفتته فقد تبرته ، ما علوا أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، والحصير السجن كما قال ابن عباس .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسماء من مكة إلى بيت المقدس — أورد ذلك بذكر ما أكرم به موسى قبله بالتوراة وجعلها هدى لبني إسرائيل ليخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهدى ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض فسلط الله عليهم البابلين أئخذوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه الحنة وأعاد لهم الدولة وأمدهم بالأموال والبنين وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أدال دولتهم مرة أخرى فأعمل فيهم السيف وسلب ونهب وجاس خلال ديارهم فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عمى الله وخالف أوامر دينه .

## الإيضاح

(وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا) أى وأعطينا موسى التوراة وجعلنا فيها هداية لبني إسرائيل ، وقلنا لهم : ألا تتخذوا من دوني وليا ولا نصيرا تكونون إليه أموركم ، وهذه مقالة أوحى الله بها إلى كل نبي أرسله ، أمرهم جميعا أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وألا يعولوا في أمر إلا عليه .

وقد جاءت هذه الآية عقب آية الإسراء من قبل أن موسى أوتي التوراة بسيره إلى الطور كما أسرى بمحمد إلى بيت المقدس .

ثم نبه إلى عظيم شرف بني إسرائيل وإتمام نعمته عليهم ، ليكون في ذلك تهيب لهم وبيان لعظيم المنة عليهم فقال :

(ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) أى يا سلالة ذلك النبي الكريم الذى شمله الله بحميد رعايته وأنجاه من غرق الطوفان بما ألهمه من عمل السفينة التى حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أنتم من حفدة أبنائه ، فتشبهوا بأبيكم واقتدوا به فإنه كان عبدا شكورا أى مبالغا فى الشكر بصفه كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فاللسان لذكر الله ، والعقل للفكر فيما خلق الله ، والبصر للتأمل فيما صنع الله ، وهكذا بقية الحواس وأعضاء الجسم .

أخرج ابن مردويه عن معاذ بن أنس الجهني أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا كان إذا أمسى وأصبح قال ( سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ) .

وأخرج ابن جرير والبيهقي والحاكم عن سلمان الفارسى قال : « كان نوح إذا لبس ثوبا أو أطمع طعاما حمد الله تعالى فسمى عبدا شكورا » .

وفى هذا إيحاء إلى أن إنجاء من كان معه كان ببركة شكره ، وفيه حث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذى هو أفضح مراتب الكفر .

ثم بين سبحانه أنه أنعم على بني إسرائيل بالتوراة ، وجعلها هدى لهم لكنهم لم يهتدوا بها فقال :

( وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ) أى وأوحينا إلى بني إسرائيل فيما أنزلناه في التوراة على موسى فأعلمهم به : لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاها تغيير التوراة وقتل شعيا عليه السلام وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله . والثانية قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبعثن على الناس ولتظلمنهم ظلما شديدا تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

( فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ) أى فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بمجناتكم عبادا لنا أولى بطش شديد في الحروب هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا في البلاد وترددوا بين الدور والمساكن للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم وأحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس وسبوا منكم عددا كثيرا وكان ذلك وعدا مفعولا نافذا لا مرد له .

( ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ) أى ثم رجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، ففزوتهم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ورجع الملك إليكم وكثرت أموالكم بعد أن نهبت ، وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عددا وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

( إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ) أى إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمت أمره وتركتم نهيه = أحسنتم لأنفسكم لأنكم تنفعونها بذلك في دنياها وآخرتها ؛ أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ويرد كيده في نحره ، ويغنى

لكم أموالكم ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما في الآخرة فإن الله يشيكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم (ورضوان من الله أكبر) .

وإن عصيتهم ربكم وفعلتهم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه تعالى فيسلط عليكم في الدنيا أعداءكم ويمكن منكم من يبغي بكم سوء ، ويلحق بكم في الآخرة العذاب المهين .

( فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ) أي فإذا جاء وقت المرة الآخرة من مرتي إفسادكم في الأرض بعثنا أعداءكم ليجمعوا آثار المساء والكآبة بادية في وجوهكم ( فإن الأعراض النفسية تظهر في الوجوه فالفرخ يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقترة ) وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما ادخرتموه وخزنتموه تتبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوي : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فمزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيردوس أو خردوس اه .

والذي أثبتته اليهود في توارينهم أن الذي أغار عليهم أولا وخرّب بيت المقدس هو بَحْتَنَصْر وكان ذلك في زمن أرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم بحجيته صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فبسوه في بئر وجرحوه - وأن الذي أغار عليهم ثانيا هو أسبيناوس قيصر الروم وكان بين الإغارتين نحو من خمسين سنة .

وعلى الجملة فعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من يفتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

( عسى ربكم أن يرحمكم ) بعد البعث الثاني إن تبتم وازدرجتم عن المعاصي ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

(وإن عدتم عدنا) أي وإن عدتم لعصيتي وخلاف أمرى وقتل رسلى - عدنا عليكم بالقتل والسب والإحلال النبل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعباده ، فقد كذبوا النبي صلى الله عليه وسلم وهموا بقتله فسقطه الله عليهم ، فقتل قريظة وأجلى بنى النضير وضرب الجزية على الباقيين ، فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) قال الحسن : الحصر هو الذى يبسط ويفرش والغرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى إنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال : « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجننا محيطا بهم حابسا لهم لارجاء لهم فى الخلاص منه .  
وخالصة ذلك - إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم فلا يتخلصون منه أبدا .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١)

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسراء وأكرم موسى بالتوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحل بهم عذاب الدنيا والآخرة - ففى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ويبشر الصالحين بالأجر والثواب

العظيم ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولاً قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك والدمار واللعنة كما يدعو لنفسه بالخير .

## الإيضاح

( إن هذا القرآن يهتدى للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ) مدح الله سبحانه كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه بصفات ثلاث :

(١) إنه يرشد من اهتدى به للسبيل التى هي أقوم السبل وهى ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء التى أهم دعائها الإخبات لله والإنابة إليه واعتقاد أنه واحد لا شريك له ، وأنه صاحب الملك والملكوت وهو الحى الذى لا يموت ، وهو الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(٢) إنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتون بما أمر الله وينتهون عما نهاهم عنه ، بالأجر العظيم يوم القيامة كفاء ما قدموا لأنفسهم من عمل صالح .

(٣) إنه ينذر الذين لا يصدقون بالمعاد ولا يقرون بالثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا يتحاشون ركوب المعاصى - بالعذاب الأليم الموجه جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام ، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب لأن بعضهم ينكر الثواب والعقاب الجسمانيين ، وبعضهم يقول : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ، وإطلاق البشارة على العقاب من قبيل التهكم كما فى قوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وبعد أن بين حال الهادى وهو الكتاب الكريم بين حال المهتدى وهو الإنسان فقال :

( ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ) أى ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول: اللهم العني، اللهم أهلكني، كدعائه ربه بالخير أى بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ، ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا لهلك ، ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه كما قال « وَكَوَّ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لِقَضَى إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » وفى الحديث « لاتدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » .

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً فأقبل بين بالليل ، فقالت له مالك تن فشكا ألم القد ( سير من جلد غير مدبوغ تربط به يدا الأسير ورقبته ) فأرخت له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال عليه السلام « اللهم اقطع يدها » فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إني سألت الله أن يجعل دعائى على من لا يستحق عذاباً من أهلى رحمة ، لأنى بشر أغضب كما تغضبون ، فلترد سودة يدها » .

وقد يكون المعنى فى الآية — إن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلباً لشيء يعتقد أن فيه خيره ، مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره لجهله بحاله ، وإنما يقدم على ذلك العمل لكونه عجولاً مغتراً بظواهر الأمور غير متفحص لحقائقها وأسرارها ومن ثم قال :

( وكان الإنسان عجولاً ) يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعامياً عن ضرره .  
وفى الآية إيماء إلى أن القرآن يدعو للتي هي أقوم ، ويأبون إلا التي هي أوم .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ،  
وَكَُلُّ شَيْءٍ فُضِّلْنَا بِهِ تَفْصِيلاً (١٢)

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم — قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التي في الآفاق، وهي برهان نير لا ريب فيه، وطريق بين لا يضل من ينتحيه .

## الإيضاح

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى وجعلنا الليل والنهار دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا، أما في الدين فلأن كلا منهما مضاد للآخر ومخالف له مع تعاقبهما على الدوام، وهذا من أقوى الأدلة على أنه لا بد لهما من فاعل مدبر يقدرهما بمقادير مخصوصة، وأما في الدنيا فلأن مصالحهما لا تتم إلا بهما، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف في وجوه المعاش .

(فمحونا آية الليل) أى محوينا آية هي الليل أى جعلنا الليل ممحو الضوء مطموسه مظلمًا لا يستبين فيه شيء كما لا يستبين ما في اللوح المحو روى ذلك عن مجاهد .  
(وجعلنا آية النهار مبصرة) أى وجعلنا الآية التي هي النهار مضيئة ومبصرة. أى يبصر أهلها فيها .

(لتبتغوا فضلا من ربكم) أى فعلنا ذلك لتطلبوا لأنفسكم فيه رزقا من ربكم إذ لا يتسنى ذلك في الليل، وفي التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء مع ذكر صفة الربوبية الدالة على الوصول إلى ذلك شيئا فشيئا — دلالة على أنه ليس للمرء في تحصيل الرزق سوى الطلب بالأسباب العادية، وفي الخبر « يطلبك رزقك كما يطلبك أهلك » وقيل :

ولقد علمت وما الإشراف من خلقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى  
أسعى إليه فيعنينى تطلبه ولو قعدت أتانى لا يعنينى

(ولتعملوا عدد السنين والحساب) أى ولتعملوا بمحو آية الليل وجعل آية النهار مبعصرة عدد السنين التي تتوقف عليها مصالحكم الدينية والدنيوية، ولتعملوا الحساب أى حساب الأشهر والليالي والأيام وغير ذلك مما نيط به شيء من تلك المصالح إذ لو كان الزمان كله نسقا واحدا لماعرف شيء من هذا كما قال تعالى «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ؟ أَفَلَا تَبْصُرُونَ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» وقال «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ». ولا شك أن في ذكر منافعهما وبيان ما فيهما من الدلالة على وجود الخالق تفصيلا لتلك الفوائد، لا جرم قال:

(وكل شيء فصلناه تفصيلا) أى وكل شيء لكم إليه حاجة في مصالح دينكم ودنياكم قد فصلناه تفصيلا بينا، ونحو الآية قوله «مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» وقوله «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ».

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَذَمَّرْنَاَهَا تَذْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ  
 مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ  
 يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ  
 يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا  
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كَلَّا نُبَدِّلُهُ لَمَلًا  
 وَهُوَ لَمْ يُدْرِكْهُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ  
 فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ  
 تَفْضِيلًا (٢١)

### شرح المفردات

طائره، أى عمله، سمي به إما لأنه طار إليه من عش الغيب، وإما لأنه سبب  
 الخير والشر كما قالوا: طائر الله لا طائر ك، أى قدر الله الغالب الذى يأتي بالخير والشر  
 لا طائر ك الذى تتشام به وتتمين؛ إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه  
 زجرا، فإن مرّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمّنا به وسموه سانحا، وإن مرّ من اليمين  
 إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا، كتابا: هو صحيفة عمله، منشورا، أى غير مطوى،  
 حسيبا، أى حاسبا أى عادّ يعد عليه أعماله، والوزر: الإثم والذنب، يقال منه وزر يزر  
 فهو وزر وهى وازرة أى نفس وازرة، والمترفون: هم المنعمون من الملوك والعظماء،  
 أمرنا مترفيها، أى أمرناهم بالطاعة، ففسقوا، أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا، فحق عليها  
 القول، أى وجب لها العذاب، والتدمير: الإهلاك مع طمس الأثر، والقرن: القوم،  
 مجمعه زمان واحد، وقد حدد بأربعين سنة، وبثمانين، وبمائة، والعاجلة: الدار

الدنيا ، يصلها ، أى يقاسى حرها ، مدحورا ، أى مطرودا مبعدا من رحمة الله ، محظورا أى ممنوعا عن يريده .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه — قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسنها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه ؛ ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحدا منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم رحمة بهم ورأفة ، وأعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء واختياره وأن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم وبما يستحقون ، ثم قسم العباد قسمين قسم يجب الحياة الدنيا ويعمل لها وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن وأولئك سعيهم مشكور مقبول عند ربهم ولهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وهؤلاء وهؤلاء يئدهم ربهم بعبائهم ، إذ ليس عطاؤه بمنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

### الإيضاح

( وكل إنسان أزمناه طائرته فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا )  
أى وأزمننا كل امرئ عمله الذى يصدر منه باختياره على حسب ما قدر له من خير

أوشر ، لا يتفك عنه بحال ، والعرب تضرب المثل للشئ الذى يلزم بالشئ الذى يوضع فى العنق ، فيقولون جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ، وخصوا العنق لأنه يظهر عليه ما يزين المرء كالقلائد والأطواق ، أو ما يشينه كالأغلال والأهواق ( الحبال تجرّ بها الدواب ) .

وخلاصة هذا — إن كل إنسان منكم معشر بنى آدم أزمناه نحسه وسعده ، وشقاه وسعاده ، بما سبق فى علمنا أنه صائر إليه ، ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا وفيه أعماله التى كسبها فى الدنيا ، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ما أسلف فى تلك الحياة .

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال: قال الله يابن آدم بسطنا لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا امت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، قد عدل والله من جعلك حسيب نفسك .

( اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ) أى ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتابا يلقاه منشورا ، فيقال له اقرأ كتاب عملك الذى عملته فى الدنيا وكان الملكان يكتبانه ويحصيانه عليك ، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها ، لا نبتغى عليك شاهدا غيرها ، ولا نطلب حصيا سواها .

وبعد أن ذكر أن القرآن هاد للتي هى أقوم وأن الأعمال لازمة لأصحابها بين أن منفعة العمل ومضرته راجعة إلى عامله فقال :

( من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ) أى من استقام على طريق الحق واتبعه ، واتبع الدين الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، فنفسه

قد نفع ، ومن حاد عن قصد السبيل وسار على غير هدى وكفر بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه من الحق فلا يضرنّ إلا نفسه ، لأنه جعلها مستحقة لغضب الله وأليم عذابه .

ثم زاد الجملة الثانية توكيدا بقوله :

( ولا تبرروا وزر أخرى ) أى ولا تأثم نفس آئمة إثم نفس أخرى ، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها من الأنفس .

وفى هذا قطع لأطماعهم الفارغة ، إذ كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالنبتة على أسلافهم الذين قلدوهم ، روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة حين قال : اكفروا بمحمد وعلى أوزارك .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وقوله : « وَلِيَحْمِلْنَ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن الدعاة إلى الضلال عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا من غير أن ينقص أوزار أولئك ولا يرفع عنهم منها شيئا ، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده .

ثم ذكر عنايته ورحمته بهم فقال :

( وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ) أى وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسول وإقامة الحجة عليهم بالآيات التى تقطع أعذارهم ، وبمعنى الآية قوله تعالى : « كَلِمَاتٍ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » وقوله : « أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ؟ فَذُقُوا مِمَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

وخلاصة ذلك — إن سنتنا المبنية على الحكم العالية ألا نعذب أحداً أى نوع من العذاب الدينى أو الأخرى على فعل شيء أو تركه إلا إذا أرسلنا رسولا يهدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقم الحجج ويمهد الشرائع وتبلغه دعوته .

قال الإمام الغزالي : الناس بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة :

( أ ) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، وأولئك مقطوع لهم بالجنة .  
 ( ب ) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانينا ، وأولئك مقطوع لهم بالنار .

( ح ) من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا بالدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك ، وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا ما يرغبهم في الإيمان به اه .

يريد الغزالي بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة ، وعن دينه أخبارا لا تنطبق على حقيقة ، كما يفعل رجال الكنائس في تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلق ، وأنه كان متهاكاً في حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ، لأنه كان يسجد للكعبة ، وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للقصص وفيه كذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لا يقولون إلا ترهات وأباطيل .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثة الرسل فقال :

( وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ) أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ودنست به أنفسها من الآثام — لم نعالجها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقاً لاجتراحهم

السيئات وارتكابهم كباثر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميرا ولم نبق منها  
ديارا ولا نافع نار .

وخص المترفين بالذكر لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعاهم ، وأن  
العامة والدهاء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول  
إلى سبيله .

وقد يكون المراد من الأمر — أن الله يفيض عليهم نعمه التي تبطّرهم وتجعلهم  
يقعون في المعاصي ، فكأنه تعالى يأمرهم بها ، إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .  
وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد ( بأمرنا ) أكثرنا واستدل بما أخرجه أحمد  
والطبراني من قوله صلى الله عليه وسلم « خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة » أى  
مهرة كثر نسلها وطريق مصطفة من الفخل مأبورة ( كثر فيها اللقاح ) لنشر الثمر الجنى .  
ثم ذكر أن كثيرا من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم  
من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وكانوا على مثل ما أنتم  
عليه من الشرور والآثام ، واستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من  
العقاب مثل ما حل بهم وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش  
وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله - ما لا يخفى .  
(وكنى بربك بذنوب عباده خيرا بصيرا) أى وحسبك أيها الرسول بالله خيرا  
بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شيء من أفعال مشركى قومك ولا أفعال غيرهم ،  
بل هو عليم بجميع أعمالهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ،  
وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) (من كان يزيد العاجلة جعلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم

يصلها مذبذوما مدحورا) أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل ويسعى وإياها ينتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يجعل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ثم يصلية حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذبذوما على قلة شكره وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعدا من رحمة مطرودا من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

( أ ) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ثم جعلنا له جهنم يصلها أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

( ب ) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله مذبذوما .

( ح ) البعد والطرده من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص وإلى هذا أشار بقوله : مدحورا ، وفى قوله : لمن تريد ، إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريد ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا ، وربما فاتتهم أيضا .

( ٢ ) (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أى ومن أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه ، وهو مصدق بشوايه وعظيم جزائه على سعيه لها - شكر الله له جزيل سعيه وآتاه حسن الثوبة ، كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أمورا ثلاثة :

( ١ ) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وجاء فى الحديث :

« إنما الأعمال بالنيات » - إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه والإخبات والخشوع له .

(ب) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لامن الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(ح) أن يكون ذلك وهو مؤمن ، فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الديوى لا يحظر على كل من الفريقين فقال :  
 ( كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ) أى إن كلا من الفريقين يريدى العاجلة ويريدى الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمده ربه بعطائه ويوسع عليه الرزق ويكثر الأولاد وغيرها من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالمتنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافرا ، فكلمهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضع ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء على أحد فقال :

( انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ) أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر ، ولهذا حكم وأسباب بينها سبحانه بقوله :  
 « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » وقوله :  
 « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدرجات السفلى فى جهنم مصفداً بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم، ففي الصحيحين «إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء» وفيهما : «إن الله تعالى أعدّ لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبوسفيان ابن حرب ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم ، فقال أبوسفيان ما رأيت كالיום قط إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم إني والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم ، إنهم دُعوا ودعينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت فى الآخرة ، ولئن حسدتهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا ، أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟ .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ

كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ  
 وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ  
 الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِنَّمَا تُعْرَضُونَ عَنْهُمْ مُبْتِغَاءَ مَنِّهِ مِنْ رَبِّكَ  
 تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيِّسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ  
 وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ  
 الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا  
 أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِنَّا كُمْ أَن نَّقَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا  
 كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا  
 تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا  
 لَوْلِيَهُ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا  
 مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ  
 الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمُوزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ  
 الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ،  
 إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ  
 فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا  
 (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ  
 إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَىٰ فِي جَهَنَّمَ  
 مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)

## شرح المفردات

فتتعد : أى فتصير ، مذموما : أى ممن يستحق الدم من الملائكة والمؤمنين ،  
مخدولا : أى من الله لأنك أشركت معه ما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقضى :  
أى حكم وأمر ، وأف : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لا نقل لفلان  
أف أى لا تتعرض له بنوع من الأذى والمكروه ، والنهر : الزجر بغلظة ، كريما :  
أى جميلا لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شىء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم .  
وخفض الجناح يراد به التواضع والتذلل ، من الرحمة : أى من فرط رحمتك عليهما  
والأواب : الذى ديدنه الرجوع إلى الله والاتجاء إليه حين الشدة ، والتبذير إنفاق  
المال فى غير موضعه ، وإخوان الشياطين : أى قرنائهم ، والابغاء : الطلب ، والرحمة  
الرزق ، والميسور : السهل اللين ، والمغلولة : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين  
والعنق ، وتبسطها : أى تتوسع فى الإنفاق ، والحسور : المنقطع عن السير إعياء  
وكالالا ، ويقدر : أى يقرر ، والإملاق : الفقر قال :

وإنى على الإملاق يا قوم ماجدٌ أعددٌ لأضيافى الشواء المضمبنا

والخطء : كالإثم لفظا ومعنى ، والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبيح ، والسلطان :  
التسلط والاستيلاء ، فلا يسرف : أى لا يتجاوز الحد المشروع فيه ، التى هى أحسن  
أى الطريق التى هى أحسن ، والعهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه  
وتوكيده ، والقسطاس : ( بكسر القاف وضمها ) الميزان ، والمستقيم : العدل ، والتأويل  
ما يشول إليه الشىء وهو عاقبته ، ولا تقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، والمرح :  
الفخر والسكبر ، لن تحرق الأرض : أى لن تجعل فيها طر قابدوسك وشدة وطأتك ،  
والحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، والمدحور : المبعد من  
رحمة الله .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وعاقبتهم العذاب والزبال ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، وهم أهل مرضاته والمستحقون لتوابعه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة وأن يكونوا مؤمنين — لا جرم فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعيا للآخرة وصار من الذين سعد طائرهم وحسن حظهم ، ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وبعدئذ أتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين من قبل أنهما السبب الظاهر فى وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع والمسلمون كلهم إخوة وهم يد على من سواهم ، ثم قفى على ذلك بالنهى عن التمييز لما فيه من إصلاح حال المرء وعدم ارتباكها فى معيشتها ، وإصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد فى صلاحهم صلاحها ، ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ويرشد إلى حسنه العقل ، وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم فلا وجه للخوف من ذلك ؛ ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب وفقدان النسل أوقلته ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعاً عن العرض ؛ ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيتته ، ثم بإيتاء الكيل والميزان لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شؤون الفرد والمجتمع ، ثم بالنهى عن تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم من عبادة الأصنام تقليدا لهم ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ،

ولا في شيء لم تره ، إنك قد رأيت ، ثم بالنهي عن مشيئة الخيلاء والمرح لما فيهما من الصلف الذي لا يرضاه الله ولا الناس ، ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهي هي من وحى الله وتبليغه لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب و فقدان الثقة في معاملاتهم .

## الإيضاح

( لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا ) أى لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا في أوهته وعبادته ، ولكن أخلص له العبادة وأفرد له الألوهة ، فإنه لا رب غيره ولا معبود سواه ، وإنك إن تجعل معه إلها غيره وتعبد معه سواه تصر ملوما على ما ضيعت من شكر الذى أنعم عليك بنعمه ، وشكر من لم يولك نعمة ، مخذولا لا ينصرك ربك بل يكللك إلى من عبدته معه ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

وبعد أن ذكر الركن الأعظم فى الإيمان أتبعه بذكر شعائره وهى الأمور الآتية فقال :

(١) ( وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ) أى وأمر ربك ألا تعبدوا غيره ، إذ العبادة نهاية التعظيم ، ولا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ، ولا منعم إلا هو .

(٢) ( وبالوالدين إحسانا ) أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما ليكون الله معكم « إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .  
وقد أمر الله بالإحسان إليهما للأسباب الآتية .

( ١ ) شفقتهم على الولد وبذل الجهد فى إيصال الخير إليه وإبعاد الضر عنه جهد المستطاع ، فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

( ب ) إن الولد قطعة من الوالدين كما جاء في الخبر أنه عليه السلام قال :  
« فاطمة بضعة مني » .

( ح ) إنهما قد أنعموا عليه وهو في غاية الضعف ونهاية العجز ، فوجب أن  
يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما كما قال الشاعر العربي يعدد نعمه على ولده وقد  
عقه في كبره :

غذوتك مولودا ومُنْتِك يافعا	تُعَلِّ بما أجنى عليك وتتهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسقمك إلا ساهرا أتعمل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طُرقت به دونى فعينى تُهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فيك أوئل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة	كأنك أنت النعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى	فعلت كما الجارُ الجاورُ يفعل

وإخلاصة — إنه لا نعمة تصل إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ثم  
نعمة الوالدين ، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أولا بقوله : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ،  
ثم أودفها بشكر نعمة الوالدين بقوله : وبالوالدين إحسانا .

ثم فصل ما يجب من الإحسان إليهما بقوله :

( إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل  
لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني  
صغيرا ) أى إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا  
عندك فى آخر العمر كما كنت عندهما فى أوله — وجب عليك أن تشفق عليهما  
وتحنو لهما وتعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه، ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور  
الحسنة الآتية :

( أ ) ألا تتأفف من شيء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ،  
ولكن اصبر على ذلك منهما واحتسب الأجر عليه كما صبرا عليك في صفرك .  
( ب ) ألا تنغص عليهما بكلام تزجرهما به ، وفي هذا منع من إظهار المخالفة  
لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر  
القليل أو الكثير .

( ح ) أن تقول لهما قولاً حسناً وكلاماً طيباً مقروناً بالاحترام والتعظيم  
مما يقتضيه حسن الأدب وترشد إليه الرواة كأن تقول يا ابتاه ويا أماه ، ولا تدعوهم  
بأسمائهما ، ولا ترفع صوتك أمامهما ، ولا تحدد فيهما بنظرك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبي الهذاج قال : قلت لسعيد بن المسيب :  
كل ما ذكر الله تعالى في القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله « وَقُلْ لَهُمَا  
قَوْلًا كَرِيمًا » ما هذا القول الكريم ، فقال ابن المسيب : قول العبد المذنب  
للسيد الفظ .

( د ) أن تتواضع لهما وتتذلل وتطيعهما فيما أمرك به مما لم يكن معصية لله ،  
رحمة منك بهما وشفقة عليهما ، إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما ،  
وذلك منتهى ما يكون من الضراعة والمسكنة ، والله در الخفاجي إذ يقول :

يا من أتى يسأل عن فاقتي ما حال من يسأل من سائله

ما ذلة السلطان إلا إذا أصبح محتاجاً إلى عامله

وقوله: من الرحمة، أي أن يكون ذلك التذلل رحمة بهما، لامن أجل امتثال الأمر  
وخوف العار فقط ، فتذكر نفسك بما تقدم لهما من الإحسان إليك ، وبما أمرت  
به من الشفقة والحدب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لترتيبه ، فإنه يخفض  
له جناحه ، فكأنه قال للولد : اكفل والدك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلنا ذلك  
حال صفرك .

( هـ ) أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية كفاء رحمتها لك في صغرك  
وجميل شفقتها عليك .

وعلى الجملة فقد بالغ سبحانه في التوصية بهما من وجوه كثيرة ، وكفاهما أن  
يشجع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما في سلك القضاء بهما معا .  
وقد ورد في بر الوالدين أحاديث كثيرة منها :

( ١ ) إن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في الجهاد معه فقال :  
«أأحى والداك؟ قال نعم ، قال فقيمهما فجاهد .

( ٢ ) مارواه مسلم وغيره - لا يجرى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه ويعتقه .

( ٣ ) ماروى عن ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى  
العمل أحب إلى الله ورسوله ؟ قال الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين ،  
قلت ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله .

وبر الأم مقدم على بر الأب لما روى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم سئل من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال  
ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك .

ولا يختص برهما بحال الحياة ، بل يكون بعد الموت أيضا ، فقد روى ابن ماجه  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقي من بر أبوى شيء أبرهما به بعد  
موتهما ؟ قال نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ،  
وإكرام صديقيهما ، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قباهما ، فهذا الذى بقي  
عليك من برهما بعد موتهما .

والخلاصة - إنه سبحانه بالغ في التوصية بالوالدين بمبالغة تشعر منها جلود أهل  
العقوق وتقف عندها شعورهم من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ثم شفيعهما  
بالإحسان إليهما ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت  
من المتضجر مع موجبات الضجر ومع أحوال لا يكاد الإنسان يصبر معها ، وأن

يذل ويخضع لهما ، ثم ختمها بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه الخسة الأشياء جعلها سبحانه من رحمته بهما مقرونة بوجدانيته وعدم الشرك به .

ولما كان بر الوالدين عسيرا حذر من التهاون فيه فقال :

( ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا )  
 أى ربكم أيها الناس أعلم منكم بما في نفوسكم من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم والبر بهم ، ومن الاستخفاف بحقوقهم والمهتوف بهم ، وهو مجازيكم على حسن ذلك وسيئته ، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءا وتعقدوا لهم في نفوسكم عقوقا ، فإن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم وأطعتم ربكم فيما أمركم من البر بهم والقيام بحقوقهم عليكم بعد هفوة كانت منكم أو زلة في واجب لهم عليكم ، فإنه تعالى يغفر لكم ما فرط منكم ، فهو غفار لمن يتوب من ذنبه ويرجع من معصيته إلى طاعته ويعمل بما يحبه ويرضاه .

وفي هذا وعد لمن أضر البر بهم ووعيد لمن تهاون بحقوقهم وعمل على عقوقهم .

وبعد أن أمر بالبر بالوالدين أمر بالبر بأصناف ثلاثة أخرى فقال :

( وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ) أى وأعط أيها المكلف القريب منك حقه من صلة الرحم والمودة والزيارة وحسن العشرة ، وإن كان محتاجا إلى النفقة فأنفق عليه ما يسد حاجته ، والمسكين ذا الحاجة ، وابن السبيل وهو المسافر لغرض ديني ، فيجب إيادته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده .

ولما رغب سبحانه في البذل بين الطريق التي تتبع في ذلك فقال :

( ولا تبذر تبذيرا ) أى ولا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال في معصيته تقريبا بإعطائه من لا يستحقه ونحو الآية قوله « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف في المساجد مع مجاهد حول الكعبة

فرفع رأسه إلى أبي قبيس ( جبل بمكة ) وقال لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من الميسرين ، ولو أنفق درهما واحداً في معصية الله كان من الميسرين .  
وأنفق بعضهم نفقة في خير وأكثر فقيلاً له : لا خير في السرف ، فقال :  
لا سرف في الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله بسعد وهو يتوضأ ، فقال ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أوفى الوضوء سرف ؟ قال نعم وإن كنت على نهر جار . »  
وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تخرج الزكاة من مالك إن كان فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال يا رسول الله : أقلل لي ، قال فأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ، فقال حسبي يا رسول الله إذا أدت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم إذا أديتها إلى رسولك فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدلها » .

وعن علي كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :  
( إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ) تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أي إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة كما قال « وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِيسٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال « اخشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أي قرناءهم من الشياطين .

( وكان الشيطان لربه كفوراً ) أي وكان الشيطان لنعمة ربه التي أنعم بها عليه

جحودا لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه المبدرون أموالهم في معاصي الله لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران ، قال الكرخي وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل اه .

وفي ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبدر لنا صرف نعم الله عليه في غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها في التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

( وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا )  
 أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحى أن ترد عليهم انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيتك ، وورق يفيض عليك ، فقل لهم قولا ليئا جميلا وعدم وعدا تطيب به قلوبهم ، قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شيء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفي هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟ ، ولقد أحسن من قال :

إلا يكن ورق يوما أجود به للساثلين فإني لئن العود

لا يعدم الساثلون الخير من خلقي إما نوال وإما حسن مردود

ثم بين سبحانه الطريق المثلى في إنفاق المال فقال :

( ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا )

أى لا تكن بخيلا ممنوعا لا تعطى أحدا شيئا ، ولا تسرف في الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك ، فإنك إن بجات كنت ملوما مذموما عند الناس كما قال زهير :

ومن يك ذا مال فيبخل بماله على قومه يستغفرون عنه ويذم  
ومذموما عند الله لحرمان الفقير والمسكين من فضل مالك وقد أوجب الله عليك سد حاجتهما باعطاء زكاة أموالك .

وإن أسرفت في أموالك فسرعان ما تفقدها فتصبح معسرا بعد الغنى ، ذليلا بعد العزة ، محتاجا إلى معونة غيرك بعد أن كنت معياله ، وحينئذ تقع في الحسرة التي تقطع نياط قلبك ويبلغ منك الأسى كل مبلغ ، ولكن أئى يفيد ذلك وقد فات ما فات فلا ينفع الندم ولا تجدى العظة والنصيحة .

وخلاصة ذلك — اقتصد في عيشك وتوسط في الإنفاق ، ولا تكن بخيلا ولا مسرفا ، روى أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما عال من اقتصد » وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة » وروى عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتبودد نصف العقل ، والهمل نصف الهرم ، وقلة العيال أجد اليسارين » . وقيل حسن التدبير مع العقاف خير من الغنى مع الإسراف .

وإجمال المعنى — لا تجعل يدك في انقباضها كالمخلولة الممنوعة عن الانبساط ، ولا تتوسع في الانفاق فتصير نادما مغموما وعاجزا عن الانفاق لا شىء عندك ، فتكون كالدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا وإعياء .  
ثم سلى رسوله والمؤمنين بأن الذى يرهقهم من الإضاءة ليس لهوانهم على الله ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال :

( إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ) أى إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع عليه ، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه على حسب السنن

التي وضعها لعباده في كسب المال وحسن تصرفهم في جمعه بالوسائل والنظم التي وضعها في الكون .

(إنه كان بعباده خبيراً بظيراً) أى إن ربك ذو خبرة بعباده ، فيعلم من الذى تصلحه السعة فى الرزق ومن الذى تفسده ؟ ومن الذى يصلحه الإقتار والضييق ؟ ومن الذى يفسده ؟ وهو البصير بتدبيرهم وسياستهم ، فعليك أن تعمل بما أمرك به ونهاك عنه من بسط يدك فيما تبسط فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عن تكفها عنه ، فهو أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق ، وأبصرهم بتدبير شؤونهم .

وقصارى ذلك — إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض وأتعمت فى النظر فى ذلك وجدتم أن من سنه تعالى الاقتصاد ، فاقتصدوا واستنوا بسنته .

وبعد أن بين أنه تعالى الكفيل بالأرزاق وهو الذى يبسط ويقدر نهامهم عن قتل الأولاد خشية الفقر فقال :

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أى لا تشدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لأنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات لعجزهن عن الكسب وقدرة البنين عليه بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء وفى ذلك عار أيسر عليهم .  
والخلاصة — إن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال :

(إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) أى إن قتلهم كان إثماً فظيماً لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود ، وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : «قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو الذى خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزانى بحليلة جارك» .

والخلاصة — إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم ، والأول انتهاك حرمة أوامر الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .  
ولما كان في قتل الأولاد حظ من البخل ، وفي الزنا داع من دواعي الإسراف أتبعه به فقال :

( ولا تقربوا الزنا ) نهى الله عباده عن القرب من الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه فضلا عن مباشرته هولهالمبالغة في النهي عنه . وبيان شدة قبحه ، ثم عال ذلك بقوله :  
( إنه كان فاحشة وساء سبيلا ) أى إنه كان فعلة ظاهرة القبح مشتملة على مفساد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهاها ، وإذا اشتبه المرء في الولد الذى أتت به الزانية أمنه هو أم من غيره لا يقوم بتربيته ولا يستمر في تمهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرج والمرج والاضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة) .

(٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا وشهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين الأزواج ، ولا يتم السكن والازدواج الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس .

وإجمال ذلك — إن الزنا فاحشة وأى فاحشة لما فيه من اختلاط الأنساب والقتال والتناحر دفاعا عن العرض ، وإنه سبيل سوء من قِبَل أنه يسوى بين الإنسان والحيوان في عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال :

( ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ) أى لا تقتلوا النفس التي حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعمد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمدا كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود : « لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

والسبب في هذا التحريم وجوه :

(١) إنه إفساد فوجب حرمة لقوله : « وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ » .

(٢) إنه ضرر ، والأصل في المضارة الحرمة لقوله : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « لا ضرر ولا ضرار » .

(٣) إنه إذا أبيض القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب في المجتمع فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

( ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ) أى ومن قتل بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلي أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ » الآية ولقوله عليه السلام يوم الفتح « من قتل قتيلا فأهله بين خيرين ، إن أحبوا قتلوا وإن أحبوا أخذوا الدية » .

( فلا يسرف في القتل ) أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد كما كانوا يفعلون في الجاهلية ، إذ كانوا يقتلون القتال ويقتلون معه غيره إذا كان رجلا شريفا ، وأحيانا لا يرضون بقتل القتال بل يقتلون بدله رجلا شريفا

وفي الآية إيماء إلى أن الأولى للولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتبى بالدية أو يعفو .

( إنه كان منصورا ) أى إن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحسكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبنى ما وراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك ، وقد يكون المعنى : إن المقتول ظلما منصور فى الدنيا بإيجاب القود له على قاتله ، وفى الآخرة بتكفير خطاياهم وإيجاب النار لقاتله ، وهذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل لأنها مكية .

وبعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكال عجزه ولذلك قال : ( ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ) أى لا تصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق وهى طريق حفظه وتشميره بما يزيد به حتى تستحكم قوة عقله وشبابه وإذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لا يخالطونهم فى طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى : « وَإِنْ تُخَاطَبُوا فَاخُوا نِكْمًا ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » .

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر فقال : (١) ( وأوفوا بالعهد ) أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل فى ذلك ما بين العبد وربّه ، وما بين العباد بعضهم وبعض ، والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

(إن العهد كان مسئولا) أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال : للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفيت به ، كما يقال لوائد الموءودة بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام : « أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيِّ إِلَهَيْنِ ؟ » والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

(٢) (وأوفوا الكيل إذا كلمتم) أى وأتموا الكيل للناس ولا تحسروهم إذا كلمتم لهم حقوقهم وقيلكم ، فإن كلمتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى وزنوا بالميزان العدل دون شىء من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها . ثم بين عاقبة هذه الأوامر وحسن مآلها فقال :

(ذلك خير) أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكثكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس فى معاملتكم وحب الثناء عليكم . (وأحسن تأويلا) أى وأجل عاقبة لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقيمت عليهم الدنيا وحصل لهم الثروة والغنى وكان ذلك سبب سعادتهم فيها . وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال :

(١) (ولا تقف ما ليس لك به علم) أى ولا تتبع أيتها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة :

(١) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأت عيناك وسمعتته أذنك ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لا تقل سمعتُ ولم تسمع ، ولا رأيتُ ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم .  
 (ح) وقيل المراد النهي عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال :  
 « اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » وفي الحديث « إياكم والظن فإن  
 الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بئس مطية الرجل زعموا » إلا ما قام  
 الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة كما رخص النبي  
 صلى الله عليه وسلم في ذلك لمُعاذ حين بعثه قاضيا في اليمن إذ قال له « بم تقضى ، قال :  
 بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن لم تجد  
 قال أجتهد رأيي » .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا للأسلافهم واتباعا للهوى  
 كما قال : « إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ  
 سُلْطَانٍ ، إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ » .  
 ثم ذكر سبحانه تعليلا لذلك النهي فقال :

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستهولا) أي إن الله سائل  
 هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ  
 وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وفي الخبر عن شكّل بن حميد قال : « أتيت النبي  
 صلى الله عليه وسلم فقلت يا نبي الله علمني تعويذا أتعود به فأخذ بيدي ثم قال : قل  
 أعوذ بك من شر سمعي وشر بصرى وشر قلبي وشر مني » ( يريد الزنا ) .

(٢) ( ولا تمش في الأرض مراحا ) أي ولا تمش متبخترا متايلا كمشي  
 الجبارين ، فتحتك الأرض التي لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ،  
 وفوقك الجبال التي لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجمادات أنت  
 أضعف منهما ، والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا فكم تحتها قوم هم منك أرفع  
 وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هم منك أمنع

وخلاصة ذلك — تواضع ولا تتكبر فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المتقدر . ولا يخفى ما فى الآية من التقرير والتنبه والزجر لمن اعتاد ذلك .

ثم علل هذا النهى بقوله :

( إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ) أى لن تحرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

( كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ) أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها من الجمل مع الله إلهما آخر وعبادة غيره والتأفف والتبذير وغل اليد وقتل الأولاد خشية الأملق — مكروها عند ربك أى مبعوضا عنده وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال صلى الله عليه وسلم « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهة مع أن أكثرها من الكبائر — إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر وترك تلك النواهى فقال :

( ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ) أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهينناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسرازه ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا ( لا تجعل مع الله إلهما آخر ) الآية .

( ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ) كرز هذا مع ما سلف للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة وهو مبدأ الأمر ومنتهاه ، وقد رتب عليه أولاً آثار الشرك في الدنيا فقال : فتتعد مذموماً مخذولاً ، ورتب عليه هنا نتيجة في العقبى فقال : فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً أى ملوماً من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعداً من رحمة الله تعالى .

وأنت قد علمت فيما تقدم لك أن مثل هذا الخطاب إما موجه إلى الإنسان عامة ، وإما إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من وادى قولهم ( إياك أعنى واسمعى يا جاره ) .

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاتًا إِنَّكُمْ  
 تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا  
 وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا  
 لَا يَتَّبِعُونَ إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ عَلَوْا  
 كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ  
 مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا  
 غَفُورًا (٤٤) .

### شرح المفردات

الإصفاء بالشئ : جعله خالصاً له ، وصرفنا : أى بينا ، ليدركوا : أى يتدبروا ، ويتعظوا ، والنفور : البعد من الشئ ، وابتغاء الشئ : طلبه ، والسبيل : الطريق ، والفقه : الفهم .

## المعنى الجملى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهول من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندا ونظيرا —  
 قفى على ذلك بالتفديد والتفريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قبحهم أن جعلوا  
 البنين لأنفسهم مع علمهم بمعجزهم وتقصهم ، وأعطوا لله البنات مع علمهم بأنه  
 الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له — ثم أتبعه ببيان أنه  
 قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم  
 إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام  
 كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قرابة إلى الله  
 وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات  
 والأرض يسبح بحمده بدلالة أحواله على توحيده وتقديسه وكال قدرته ، ولكنكم  
 لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

## الإيضاح

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا؟) أى أفخصكم ربكم بالذكور  
 من الأولاد واتخذ من الملائكة إناثا وأتم لاترضونهن لأنفسكم بل تتدونهن وتقتلونهن  
 فتجعلون له ما لاترضون لأنفسكم .

وخلاصة ذلك — إنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادعوا أنهن بنات الله ثم  
 عبدوهن ، فأخطأوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيما ، ومن ثم قال :

(إنكم لتقولون قولا عظيما) فتفترون على الله الكذب وتانسبون إليه ما تستحقون  
 عليه الإثم والعذاب ، وتخرقون قضايا العقول ، فتجعلون أشرف خلق الله الذين منهم  
 من يقدر على جعل على الأرض سافها إناثا غاية فى الرخاوة .

ونحو الآية قوله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ  
 السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ

وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
قَرْدًا .

ولما كان هذا الكلام غاية في الوضوح والبيان ، ولا يخفى فيممه على إنسان ،  
ثم هم بعد ذلك أعرضوا عنه نبه إلى ذلك بقوله :

( ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعذركوا وما يزيدهم إلا نفورا ) أى ولقد بينا  
في هذا القرآن الآيات والحجج وضربنا لهم الأمثال وحذرناهم وأذرناهم ليعتدروا  
ويتعضوا فيقفوا على بطلان ما يقولون — فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان  
النفوس — وهم مع ذلك لا يعتبرون ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنذر  
بل ما يزيدهم التذكير إلا نفورا وبعدا عن الحق وهربا منه .

ثم رد على هؤلاء الذين يشركون بربهم ويتخذون الشفعاء والأنداد وتدع عليهم  
وسفه أحلامهم فقال :

( قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا ابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ) أى قل  
أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر : لو كان الأمر كما تقولون  
وأن معه آلهة تعبد لتتقرب إليه وتشفع لديه — لكان أولئك المعبودون يعبدونه  
ويتقربون إليه ويتبعون لديه الوسيلة ، فاعبدوه وحده كما يعبد من تدعونه من دونه  
ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يجب ذلك ولا يرضاه ،  
بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على السنة رسله وأنبيائه ونزه نفسه عن  
ذلك فقال :

( سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ) أى تزيها لله وعلوا له عما تقولون أيها  
القوم من الغرية والكذب ، فهو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد  
ولم يكن له كفوا أحد .

وفي الآية إيماء إلى وجود البون الشاسع بين ذاته وصفاته سبحانه ، وبين ثبوت

الصاحبة والولد والشركاء والأضداد ، للمنافاة التي لا غاية وراءها بين القديم والحديث والغنى والاحتياج .

ثم بين سبحانه عظمة ملكه وكبير سلطانه فقال :

( تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ) أى إن السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وألوهته كما قال أبو نواس :

وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

والمكلف العاقل يسبح ربه إما بالقول كقوله : سبحان الله ، وإما بدلالة أحواله على توحيد الله وتقديسه ، وغير العاقل لا يسبح إلا بالطريق الثانى ، فهى تدل بمحدثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن الحدوث فإن الأثر يدل على مؤثره .

( وإن من شيء إلا يسبح بحمده ) أى وما شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله أى يدل بإمكانه وحدوثه دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وتنزهه عن لوازم الحدوث .

والخلاصة — إن كل الأكوان شاهدة بتنزهه عن مشاركتة تعالى للمخلوقات فى صفاتها المحدثه .

( ولكن لا تفقهون تسبيحهم ) أى ولكن لا تفقهون أى المشركون تلك الدلالة ، لأنكم لما جعلتم مع الله آلهة فكأنكم لم تنظروا ولم تقرؤا ، إذ النظر الصحيح والتفكير الحق يؤدى إلى غير ما أتم فيه ، فأنتم إذا لم تفقهوا التسبيح ولم تستوضحوا الدلالة على الخالق .

( إنه كان حليماً غفوراً ) فمن حمله أن أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم بالله سواء وعبادتكم معه غيره ، ومن مغفرته لكم أنه لا يؤاخذ من تاب منكم . أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر أن النبى

صلى الله عليه وسلم قال: «إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه: أمر كما يسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء» .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ لَعَلَّكَ تُبْحَثُ مِنَ الْأَمْثَالِ فَمَا تَنْزِيلُهَا لَكَ مِنَ الْوَحْيِ مُبْتَلًى ۖ (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) .

### شرح المفردات

الحجاب والحجب : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحجاب ، والمستور : أى الساتر كما جاء عكسه من نحو ماء دافق : أى مدفوق ، أن يفقهوه أى لثلا يفقهوه ويفهموه ، والأكنة : الأغطية واحدها كنان ، والوقر : الصمم والثقل فى الأذان المانع من السماع ، والنفور : الانزعاج ، مسحورا أى مخبول العقل ، فهو كقولهم : إن هو إلا رجل به جنة ، فضلوا : أى جاروا عن قصد السبيل .

### المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى مقام الألوهية وجدالهم بالتي هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم وإقامة الحججة عليهم وإيضاح السبيل لهم - والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبي صلى الله عليه وسلم وقولهم فيه تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون ، وحينما إنه شاعر . روى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول

محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشيء ، وقال أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقا ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حويطب بن عبد العزيمى هو شاعر فنزلت هذه الآية .

## الإيضاح

( وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا )  
 أى وإذا قرأت أيها الرسول القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث ولا يقرون بالثواب والعقاب - جعلنا بينك وبينهم حجابا يمنع قلوبهم عن أن يفهموا ما تقرأه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة مناهم على كفرهم وتدسيتهم لأنفسهم واجتراحهم الجرائر والمعاصى التى تظلم القلوب وتضع عليها الأغشية وتستتر عنها فهم حقائق القرآن ومراميه ، وأسارره وأحكامه وحكمه ، ومواعظه وعبره .

روى أنه عليه السلام كان إذا قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قُصَيٍّ يصنفون ويصنفون ويخلطون عليه بالأشعار .  
 ثم بين السبب فى عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال :

( وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ) أى إنه تعالى جعل فى قلوبهم ما يشغلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم ما يمنع من سماع صوته .  
 وخلاصة ذلك - إنا منعناهم فقهه ، والوقوف على كنهه ، فبنت قلوبهم عن فهمه ، ومجته أسماعهم ، فهم لامتناعهم عن قبول دلائله صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب ساتر .

ونسب الحجاب إلى نفسه ، لأنه خلاهم وأنفسهم ، فصارت تلك التخلية كأنها السبب فى وقوعهم فى تلك الحال ؛ ألا ترى أن السيد إذا لم يراقب أحوال مولاه حتى ساءت حاله ، يقول أنا الذى أوصلك إلى هذا إذ ألقيت حبلك على غاربك ، ولم أراقبك عن كتب .

ونجو الآية قوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْنَةَ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ » .

( وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ) أى وإذا ذكرت ربك وحده فى القرآن وأنت تتلوه ، ولم تقل واللات والعزى انفضوا من حولك وهربوا نافرين استكبارا واستعظاما لأن يذكر الله وحده .

( نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ) أى نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزء والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتسارون ، فبعضهم يقول مجنون ، وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول : ما اتبعتم إلا رجلا قد سحر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء ، وهل من خير لكم فى اتباع أمثاله المجانين . ( انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ) أى تأمل وانظر أيها الرسول ، كيف مثاوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا هو مسحور ، وهو شاعر مجنون ، فحادوا فى كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه .

وفى هذا من الوعيد وآسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) .

### شرح المفردات

الرفات : ما تكسر وبلى من كل شيء ، يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة ، فطركم : أى ذراكم وأوجدكم ، فسينغضون إليك رؤوسهم : أى سيحركونها

استهزاء ، يقال نفض رأسه ينفض نفضا إذا تحرك ، وأنفض رأسه : حرّكه كالمتعجب من الشيء ، فتستجيبون : أى تجيبون الداعى .

### المعنى الجملى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات ، والنبوات ، والبعث والجزاء ، والقضاء والقدر ، وقد تكلم فى سلف فى الإلهيات ، ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات وفنّدها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه ، ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وتصديق ما يقول .

### الإيضاح

( وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ؟ ) أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أنذا كنا عظاما فى قبورنا لم نتحطم ولم تنكسر بعد مماتنا ، ورفاتا متكسرة مدقوقة ، أننا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلىنا فتكسرت عظامنا ونقطعت أوصالنا - خلقا جديدا كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « يَقُولُونَ أَنِنَّا لَمَرُدُّونَ فِي الْخَلْقِ ؟ أُنْذَا كُنَّا عِظَامًا نَحْرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » . وقوله : « وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا على أى حال كانوا عظاما أو رفاتا أو حجارة وخذيدا أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فقال :

(قل كونوا حجارة أو حديدا . أو خلقا مما يكبر فى صدوركم) أى قل كونوا حجارة

أوحديداً أو خلقاً مما يستبعد عنكم قبوله للحياة كالسماوات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحياءكم لتساوى الأجسام في قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاماً بالية وقد كانت قبل حية ، والشئ أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد .

وخلاصة هذا - إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء ، وهذا كما يقول القائل للرجل : أتطمع في وأنا فلان ؛ فيقول : كن ابن من شئت ، كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حتى .

وجملة المعنى - إن هذا مبالغة أيما مبالغة في قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال لو كنت عين الحياة فالله يمتك ، ولو كنت عين الغنى فالله يفترك . وبعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهي على هذه الحال حجارة أوحديداً من أي معيد . كما حكى عنهم بقوله :

( فسيقولنا من يعيدنا ؟ قل الذي فطركم أول مرة ) أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريق الاستدلال : الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ، ولا منهج معين ينتجى ، وكنتم تراباً لم يشم رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى ما كانت عليه أولاً ؟ بلى إنه سبحانه على كل شئ قدير .

ثم بين جلته قدرته ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال :

( فسينغضون إليك رءوسهم ) قال أبو الهيثم يقال لمن أخبر بشئ فحرك رأسه إنكاراً له : قد أنفض ، أى إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رءوسهم استهزاء وتكديبا ، ثم يسألون .

( ويقولون متى هو ؟ ) أى متى هذا البعث ، وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقاً جديداً كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفي معنى الآية قوله « وَيَتَوَلَّوْنَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ »  
وقوله « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

(قل عسى أن يكون قريبا) أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم  
لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ،  
ولم يخبر به أحدا من خلقه ، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ، لكن الخبر قد جاء  
بقرب حدوثه كما قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .  
(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيبون له من  
قبوركم بقدرته ودعائه إياكم والله الحمد فى كل حال ، وهذا كما يقول القائل فقلت هذا  
بحمد الله أى والله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعا « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت  
ولا فى القبر ولا فى الحشر ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون  
رعوسهم من التراب ، يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

(وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم  
ما أقمت فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا .

ونحو الآية قوله « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا »  
وقوله « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِخُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا  
يُؤْفَكُونَ » وقوله « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ  
بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِثِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » .  
قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة  
ولم تزل .

وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ عَنْهُمْ إِنَّ  
الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ

يَرْحَمَكُمُ أَوْ إِنِيشَأُ يُعَذِّبَكُمُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ  
أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ  
وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (٥٥) .

## شرح المفردات

ينزع : يفسد ويهيج الشر ، والوكيل : هو المفوض إليه الأمر ، والزبور : اسم  
الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام .

## المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك ، فقال : قل لو كان معه آلهة  
كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء  
فقال : قل الذى فطركم أول مرة - أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا  
مخالفتهم ويحادلهم بالين ولا يغفلوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسوهم ، فإن  
الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصيح  
والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم  
وإن شاء رحمكم ، ولا يصرح بأنهم من أهل النار ، فإن ذلك مما يهيج الشر مع  
أن الخاتمة مجبولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لا يقسر الناس على  
الإسلام ، فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن فى السموات والأرض  
فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأوثق الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب  
الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

## الإيضاح

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم ، الكلام الأحسن للافئاع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله «ادعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ» وقوله «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» ، روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ، ذلك أن رجلا شتمه فسهبه عمر وهم بقتله فكادت تثير فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن الشيطان ينزغ بينهم) أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعل ، ويقع الشر والخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها ، روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار» وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى رفلة (جماعة) من الناس فسمعته يقول «والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى هاهنا ووضع يده على صدره» .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله :

(إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان «سَمَّ لَا تَنفَهُمُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ» وقال «كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ» .

ثم فسر سبحانه التي هي أحسن بما علمهم من النصفة بقوله :  
 ( ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ) أي ربكم أيها القوم هو  
 العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ  
 يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم .

وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ، ولا أن يقطعوا  
 بأنهم من أهل النار ويعبروهم بذلك ، فإن العاقبة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله -  
 إلى أن ذلك مما يجر إلى توالي الضغينة في النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال :  
 ( وما أرسلناك عليهم وكيلًا ) أي وما أرسلناك أيها الرسول حفيظًا ورقيبًا  
 تقصر الناس على ما يرضى الله ، وإنما أرسلناك بشيرًا ونذيرًا ، فدارهم ولا تغافل  
 عليهم ، ومر أصحابك بذلك ، فإن ذلك هو الذي يؤثر في القلوب ويستهوئ الأفتدة ،  
 ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال :

( وربك أعلم بمن في السموات والأرض ) وبأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فيختار  
 منهم لنبوته والفته في دينه من يراه أهلاً لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة  
 علمه وواسع قدرته . ونحو الآية قوله « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

وفي هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبي طالب  
 نبيا ، وأن يكون أولئك الجوع العراة كهيب و بلال و خباب وغيرهم صحابة دون  
 الأكابر والصناديد من قريش .

وفي ذكر من في السموات ردّ لمقاتلهم حين قالوا « لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ »  
 وفي ذكر من في الأرض ردّ لمقاتلهم حين قالوا « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى رَجُلٍ  
 مِنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ » .

( ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ) بما لهم من الفضائل النفسية ، والمزايا  
 القدسية ، وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة ومزية ، ففضلنا

إبراهيم باتخاذ خليله ، وموسى بالتكليم ، ومحمدا بالقرآن الذى أعجز البشر والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » ولا خلاف فى أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا فى سورة الأحزاب فى قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » أفضل من بقيتهم ، ولا خلاف فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

(وأتينا داود زبوراً) أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك ، بل كان بما آناه الله من الكتاب ، وأفرده بالذكر لأنه كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوهَا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً  
لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ، وَمَنْ خَوْفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا  
كَبِيرًا (٦٠).

## شرح المفردات

الزعم : ( بتثليث الزاي ) القول المشكوك في صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب  
حتى قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله ورد فيه ( زعم ) فهو كذب ،  
لا يملكون : أى لا يستطيعون كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ،  
يدعون : أى ينادون ، الوسيلة : القرية بالطاعة والعبادة ، محذورا : أى يحذره  
ويحترس منه كل أحد ، في الكتاب : أى في اللوح المحفوظ ، والآيات : هى  
ما اقترحتة قريش من جعل الصفا ذهبا ، ومبصرة : أى ذات بصيرة لمن يتأملها  
ويتفكر فيها فظلموا بها : أى فكفروا بها وجحدوا ، أحاط بالناس : أى أحاطت  
بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، والرؤيا هى ما عينه صلى الله  
عليه وسلم ليلة أسرى به من العجائب ، والشجرة : هى شجرة الزقوم ، والطغيان :  
تجاوز الحد في الفجور والضلال .

## المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء في تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة  
والجن والمسيح وعزيرا ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم ينتفون إلى ربهم الوسيلة  
ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعوني وحدى لأنى أنا المالك  
لنفكم وضرهم دونهم ؛ ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب  
الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبي

واغتنام الأموال وأخذ الجزية ؛ ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التي طلب مثلها الأولون كقولهم : إن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا الخ إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، ولم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ، ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا للإيمانهم ، كما كان ذكر شجرة الزقوم في قوله : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ » ثم تلا هذا بذكر تماديهم في العناد وأنه كلما خوفهم وأنذروهم ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

### الإيضاح

( قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا )  
 أي قل أيها الرسول لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه : ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم آرباب وآلهة من دونه حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوها ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم؟ إنهم لا يقدرون على دفع شيء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم ، روى أنه لما ابتليت قريش بالقعظ وشكوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية .

( أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ) أي هؤلاء الذين يدعواهم المشركون أربابا وينادونهم لكشف الضر عنهم - يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والتقربة. أخرج الترمذى وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة؟ قال القرب من الله؟ ثم قرأ هذه الآية » .

(أيهم أقرب) أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه ، وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلامهم وأذنانهم ، فكيف تعبدونهم ؟ .

( ويرجون رحمته ويخافون عذابه ) أى ويرجون بأفعالهم للطاعة لرحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة في خوفهم من العذاب فقال :

( إن عذاب ربك كان محذورا ) أى عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال :

( وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ) أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكوها أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : « وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وقال : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا » وقال : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ » الآية .

( كان ذلك فى الكتاب مسطورا ) أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أوفى اللوح المحفوظ . عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال اكتب المقدر وما هو كأئن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء منهم من سنخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرك أن تؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ) أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هي سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم ، فلم يجهم إلى ما طلبوا ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصة — إنه ما منعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثليها ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله فى عباده .  
 روى أحمد عن ابن عباس قال : «سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم ، قال بل نستأنى بهم وأنزل الله ( وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ) الآية » .

وأخرج البيهقي فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم «لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها» .  
 ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب ، فكيف يتمي مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال :

( وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ) أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فأتيناها ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها بوصدق رسوله الذى أوجب دعاؤه فيها ، فكفروا بها ومنعوا شربها وقتلوا ، فأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

( وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ) أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيرجعوا .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رجفت (زلزلات) في عهد ابن مسعود فقال: أيها الناس إن ربكم يستعجبكم فأعتبوه، وروى أن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن، وفي الحديث الصحيح «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنيهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره» - ثم قال: يا أمة محمد والله ما أحد أعير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا»

ثم قال سبحانه محضر رسوله على إبلاغ رسالته ونجرا له بأنه قد عصمه من الناس. (وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أى واذا ذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده وهم في قبضته وتمت قهره وغلبته، فلا يقدرُونَ على أمر الإفضائه وقدره، وقد عصمك من أعدائك، فلا يقدرُونَ على إيصال الأذى إليك كما قال: «وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» .

وخلاصة ذلك - إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه . قال الحسن: حال بينهم وبين أن يقتلوه، ويؤيد هذا قوله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» .

(وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) أى وما جعلنا الرؤيا التي أريتها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختبارا للناس فأنكرها قوم وكذبوا بها وكفر كثير من كان آمن به، وازداد المخلصون إيمانا .

روى البخارى في التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء، وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة، والعرب تقول رأيتُه بعيني رؤية ورؤيا .

(والشجرة الملعونة في القرآن) أى وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنة للناس، فإنهم حين سمعوا: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ» . اختلفوا فقوم ازدادوا

إيماناً ، وقوم ازدادوا كفراً كأي جهل قال : إن ابن أبي كبشة (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزُّبَيْرِي : إن محمداً يخوفنا بالزقوم وما الزقوم إلا التمر والزُّبْدُ ، فتزقوا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا .

وقد فات هؤلاء أن في الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرين يسمى بالحري الصخري لا تتأثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامس النار نظافةً ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ في الدول المتمدنة .

وكم في الأرض من عجائب ، وكم في العوالم الأخرى من مثايا ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلاص من النار إلا قشرتها التي نعش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو  $\frac{1}{4}$  منه أكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أدروجين ، فأرضنا نار وماؤنا نار وأشجارنا وأحجارنا مملئة بالنار وهذا العالم الذي نسكنه تتخلله النار .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فتنوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة .

وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، لعن الكفار الذين يأكلونها ، توسعا في الاستعمال وهو كثير في كلام العرب .

(ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أي ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ، فما يزيدهم التخويف إلا تماديا في الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التي اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا في الأرض ، وفعل بهم ما فعل بأمتهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطامة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخالفتها للحكمة ، من الحزن لظن الكفار إذر بما يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بمثل هذه المعجزات التي أتى بها من قبلك من الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، قَالَ  
 أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ  
 أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ  
 فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزَزَ مَنْ  
 اسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارِكُهُمْ فِي  
 الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ  
 عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكُنِي بِرَبِّكَ وَكَيَلًا (٦٥) .

### شرح المفردات

أرأيتك : أى أخبرنى ، هذا الذى كرمت على : أى أهذا الذى كرمته على .  
 قاله احتقارا واستصغارا لشأنه ، لأحتنكن من قولهم حنك الدابة واحتنكها: إذا جعل  
 فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ،  
 اذهب : أى امض لشأنك فقد خليتك ومانسوت لك نفسك ، وموفورا: أى مكملًا  
 لا يدخر منه شيء من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم  
 ويقال أفره الخوف واستفزه : أى أزعجه واستخفه ، بصوتك : أى بدعائك  
 إلى معصية الله ، وأجلب عليهم : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ، ويقال  
 أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله  
 صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته لأصحابه « ياخيلى الله اركبى » والرجل : واحده راجل  
 كركب وراكب ، والغرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق ، والوكيل : الحافظ والرقيب .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدهوه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسدا على ما آناه الله من النبوة، وكبرا عن أن يتقادوا إلى الحق - بين أن هذا ليس بيدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت ؛ ألا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان والدخول فى الكفر ؛ والحسد بلية قديمة ومحنة عظيمة للخلق .

## الإيضاح

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور: البقرة . الأعراف . الحجر . الإسراء . الكهف . طه . ص . وقد تقدم الكلام فيها فيما سلف من تلك السور؛ وهانحن أولاء نفسرها فى هذه السورة .

( وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا؟ ) أى واذا ذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقارا له وقال أسجد لمن خلقت من الطين وأنا مخلوق من النار كما جاء فى الآية الأخرى : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » فكفر بنسبة ربه إلى الجور بتخيله أنه أفضل من آدم من قبل أن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم ، وقد فاتته أن الطين أنفع من النار ؛ ولئن سلم غير هذا فالأجسام كلها من جنس واحد ، والله هو الذى أوجدها من العدم ، ويفضل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض .

و (قال) أيضا لربه جرأة وكفرا والرب يحلم ويُنظِر .

(أرأيتك هذا الذي كرمت على ؟) أى أخبرنى أهدأ الذى كرمته على ؟ وهل يوجد ما يدعو إلى تفضيله على ، وهذا كلام قاله على وجه التعجب والإنكار .

(لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته لإقبيلا ) أى لئن أنظرتنى لأضلن ذريته لإقبيلا منهم ، وهذا القليل هم الذين عناهم الله بقوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ولعل إبليس حكم هذا الحكم على ذرية آدم إما بالسماع من الملائكة حين قالوا « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » أو بالقياس على ما رأى من آدم حين وسوس له فلم يجد له عزما .

ثم ذكر سبحانه أنه أجابه إلى النظرة وأخره إلى يوم الوقت المعلوم .

( قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ) أى قال له سبحانه : امض لشأنك الذى اخترته ، ولما سولته لك نفسك ، وقد اخترتك ، وهذا كما تقول لمن يخالفك : افعل ما تريد .

فمن أطاعك من ذرية آدم وضل عن الحق ، فإن جزاءك على دعائك إياهم ، وجزاءهم على اتباعهم لك وخلافهم أمرى جزاء موفور لا ينقص لسمك منه شيء ، بما تستحقون من سيء الأعمال ، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال . ونحو الآية قوله : « فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » .

( واستغفر من استطعت منهم بصوتك ) أى قال تعالى مهددا له : استخف وأزعج بدعائك إلى معصية الله ، ووسوستك من استطعت من ذرية آدم .

( وأجاب عليهم بخيلك ورجلك ) أى واجمع عليهم من ركبان جنك ومشاتهم من تجلب بالدعاء إلى طاعتك والصرف عن طاعتى ، ومثل هذا الأسلوب يراد به التشمير فى الأمر والجد فيه والتسلط على من يعويه ، وكأن فارسا مغوارا وقع

على قوم فصّوت بهم صوتا مزعجا من أماكنهم ، وأجلب عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

قال مجاهد : ما كان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل في معصية الله فهو من رجالة إبليس . وقال آخرون : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، وإنما يراد بهما الأتباع والأعوان من غير ملاحظة لكون بعضهم ماشيا وبعضهم راكبا .

(وشاركهم في الأموال) بفتحهم على كسبها من غير السبل المشروعة وإنفاقها في غير الطرق التي أباحها الدين ، ويشمل ذلك الربا والغصب والسرقة وسائر المعاملات الفاسدة .

قال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خيبت وينفقوها في حرام .  
(والأولاد) بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة وارتكاب ما لا يرضى الله .  
وإجمال القول فيه — إن كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه ، أو بالزنا بأمه أو بواده أو بقتله أو غير ذلك فقد شارك إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه .

(وعدمهم) بما يستخفهم ويفرهم من المواعيد الباطلة ، كعدمهم بأن لاجنة ولانار أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله صلى الله عليه وسلم « يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لأغني عنك من الله شيئا » أو بالتسويق في التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .  
وخلاصة ذلك — إنه يعويهم بأن لا ضرر من فعل هذه المعاصي ، فإنه لاجنة ولانار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنما سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها ، فتفويتها غبن وخسران .

خذوا بنصيب من سرور ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم

وينفهم من الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لا رجعة بعد هذه الحياة ، فهي عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعه .

(وما يعدم الشيطان إلا غرورا) لأنه لا يفتنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فواعيده خدعة وباطل يزينها لهم ويلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ » وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ » .

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى إن عبادى الذين أطاعونى فاتبعوا أمرى وعصوك ، ليس لك عليهم تسلط ، فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لا يعفر ، فإنى قد وقتهم بالتوكل على ، فكفيتهم أمرك .

(وكفى برك وكيلا) فهم يتوكلون عليه ويستمدون منه العون فى الخلاص من إغوائك ووسوستك .

وفى الآية إيماء إلى أن الإنسان لا يمكنه أن يحترز بنفسه من مواقع الضلال ، وإنما المعصوم من عصمه الله .

رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ ، فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا

لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ  
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا  
تَفْضِيلًا (٧٠) .

## شرح المفردات

يزجى: أى يسوق حيناً بعد حين؛ والمراد أنه يجريه، وفضله: هو رزقه، والمراد  
بالضر: خوف الفرق بتقاذف الأمواج، وضل: غاب عن ذكركم، والخسف والخسوف:  
دخول الشيء فى الشيء؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس، وعين من  
الماء خاسفة: أى غائرة الماء، وخسفت الشمس: أى احتجبت، وكأنها غارت  
فى السحاب، والحاصب: الريح التى ترمى بالحصى والحجارة، والقاصف: الريح  
تقصف الشجر وتكسره، والتبيع: النصير والمعين، وحملته على فرس: أى أعطيته  
إياها ليركبها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه هو الحافظ الكالى للعبد المؤمن من غواية  
إبليس، وأنه لا يستطيع أن يمسّه بسوء — فنى على ذلك بذكر بعض نعمه تعالى  
على الإنسان التى كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران لا بالكفران، وهو الذى  
يرى دلائل قدرته فى البر والبحر، فهو الذى يزجى له الفلك فى البحر لتنتقل له  
أرزاقه وأقواته من بعيد المسافات، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة إذا مسه الضر  
دعاه به، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان، فهل يأمن أن يخسف به  
الأرض، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر، أو قاصفا من الريح فى البحر فيغرقه  
بكفره، وهل نسى أنه فضله على جميع الخلق، و بسط له الرزق، أفلا يفرده بالعبادة  
ويخبت له كفاء تلك النعم المتظاهرة عليه؟

## الإيضاح

( ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا )  
 أى إن ربكم أيها القوم هو القادر الحكيم الذى يجرى لكم لنفعمكم السفن فى البحر  
 بالريح اللينة أو بالآلات البخارية أو الكهربية لتسهيل نقل أوقاتكم وحاجكم من إقليم  
 إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أذناها ، والعكس بالعكس ، ونقل أشخاصكم من  
 قطر إلى قطر ابتغاء للرزق أو للسياحة ورؤية مظاهر الكون على اختلاف الأصقاع  
 مما يرشد إلى باهر القدرة ، ووافر النعمة عليكم إنه كان بكم رحيمًا ، إذ سهل ما فيه  
 الفوائد المرجوة لكم فى هذه الحياة .

ثم خاطب الكفار بقوله :

( وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ) أى وإذا نالتكم الشدة  
 والجهد فى البحر ذهب عن خواطركم كل من تدعونه وترجون نفعه من صنم أو جن  
 أو ملك أو بشر أو حجر فلا تدكرون إلا الله ، ولا يخطر على بالكم سواه لكشف  
 ما حل بكم .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا مسكم الضر دعوتم الله منيبين إليه مخلصين  
 له الدين .

( فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ) أى ومن عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه  
 وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه فى البحر أعرضتم عن الإخلاص  
 ورجعتم إلى الإشراف به كفرًا منكم بنعمته .

ثم عالج هذا الإعراض بقوله :

( وكان الإنسان كفورًا ) أى وكانت سجية الإنسان وطبيعته أن ينسى النعم  
 ويحجدها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف — إنهم حين الشدائد يتمسكون برحمة الله ، وحين الرخاء  
 يعرضون عنه .

ثم حذر من كفران نعمته فقال :

( أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم  
وكيلا ؟ ) أى أخسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقام الله وعذابه ، فهو إن  
شاء خسف بكم جانب البر وغيبه فى أعماق الأرض وأتم عليه ، وإن شاء أمطر  
عليكم حجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا  
تكون إليه أموركم فيحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم غيره ، جل وعلا .  
وخلاصة ذلك — إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم من فوقكم  
بريح يرسلها عليكم فيها الحصاة يرحمكم بها ، فيكون أشد عليكم من الغرق فى البحر .  
( أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم  
بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ) أى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد  
ما اعترفتم بتوحيدنا فى البحر حتى خرجتم إلى البر — أن يعيدكم فيه مرة أخرى  
فيرسل عليكم ريحا تقصف السوارى وتغرق المراكب بسبب كفركم وإعراضكم عن  
الله ، ثم لا تجدوا لكم نصيرا يعينكم ويأخذ بثأركم .

قال قتادة : أى لا تخاف أحدا يتبعنا بشيء مما فعلنا ، يريد . إنكم لا تجدون  
ثأرا يظلمنا بما فعلنا انتصارا منا أو دركا للثأر من جهتنا ، وفى معنى الآية قوله :  
« فَسَوَّاهَا وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

وفى الآية وعيد أيما وعيد فكأنه قيل : ننتقم منكم من غير أن يكون لكم  
نصير يدفع عنكم شديد بأسنا .

( ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم  
على كثير ممن خلقنا تفضيلا ) أى ولقد كرمتنا بنى آدم بحسن الصورة واعتدال القامة  
والعقل ، فاهتدى إلى الصناعات ومعرفة اللغات وحسن التفكير فى وسائل المعاش  
والتمسك على ما فى الأرض وتسخير ما فى العالم العلوى والسفلى ، وحملناهم على الدواب  
والقطر والطائرات والظاود (واحد منطاد) والسفن ، ورزقناهم من الأغذية النباتية  
والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من الخلق بالغلبة والشرف والكرامة ، فعليهم

ألا يشركوا ربهم شيئاً ، ويرفضوا ما هم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان .  
والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام .

والخلاصة — إن في الآية حثاً للإنسان على الشكر ، وألا يشرك بربه  
أحدًا ، لأنه سخر له ما في البر والبحر وكلاًه بحسن رعايته ، وهداه إلى صنعة الفلك  
لتجري في البحر ، ورزقه من العلييات ، وفضله على كثير من المخلوقات .

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ ، فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ  
يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظَامُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ  
فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي  
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ  
تَبَتَّنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَا ذَقْنَاكَ ضِعْفَ  
الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا  
لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُسُونَ خِلَافَكَ  
إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا  
تَحْوِيلًا (٧٧) .

### شرح المفردات

إمامهم: هو كتابهم فهو كقوله « وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ » والفتيل:  
الخيوط المستطيل في شق النواة، وبه يضرب المثل في الشيء الحقيق التافه ، ومثله النقيير  
والقطمير ، أعمى: أى أعمى البصيرة عن حجة الله وبيناته ، والركون إلى الشيء: الميل  
إلى ركن منه ، ضعف الحياة: أى عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا ، وضعف المات: أى

عذابا مضاعفا في الممات في القبر و بعد البعث، ونصيرا: أى معيننا يدفع عنك العذاب، لا يابثون: أى لا يبقون، خلفك: أى بعدك، سنة من قد أرسلنا: أى سننتنا بك سنة الرسل قبلك، تحويلا: أى تغييرا.

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل ثناؤه أحوال بنى آدم في الدنيا، وذكر أن الله أكرمهم على كثير من خلقه، وفضله عليهم تفضيلا — فصل في هذه الآيات تفاوت أحوالهم في الآخرة مع شرح أحوال السعداء، ثم أردفه بما يجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوسوس أرياب الضلال والانخداع بكلامهم المشتمل على المسكر والتلبيس، ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بأن الأمم التي تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها لا بد أن يصيبها الوبال والنكال.

## الإيضاح

(يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أى اذ كر لهم ذلك اليوم يوم ندعو كل أناس ومعهم كتابهم الذى فيه أعمالهم التي قدموها، ولا ذكر للأنساب حينئذ لأنها مقطوعة فلا يقال يابن فلان، وإنما يقال يا صاحب كذا كما قال تعالى «فَلَا أُنسَبُ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ».

والمخالصة: إن العول عليه يومئذ الأعمال والأخلاق والآراء والعقائد النفسية التي تنعس في النفوس لا الأنساب، لأن الأولى باقية والثانية فانية.

(فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أى فمن أعطى كتاب عمله يمينه فأولئك يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح، ونحو الآية قوله «فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَّةً» (ولا يظلمون فتىلا) أى ولا ينتقصون شيئا من أجور أعمالهم، وقد ثبت

في علم الكيمياء أن وزن الذرات التي تدخل في كل جسم هي بنسب معينة، فلو أن ذرة واحدة في عنصر من العناصر الداخلة في تركيب أى جسم من النبات أو الحيوان أو الجاد نقصت عن النسبة المقدره لتكوينه لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا في نظم الطبيعة ، فما أجل قدرة الله وما أعظم حكمته في خلقه ! .

(ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أى ومن كان في دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج الله وبياناته التي وضعها في صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها — فهو في الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه في الدنيا ، لأن الروح الباقي بعد الموت هو الروح الذي كان في هذه الحياة الدنيا ، وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبي ، وكما يشمر النخل الثمر والأشجار الفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقي هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفر أو ينشرح على حسب ما يرى ، وما الثمر إلا على حسب الشجر ، فإذا كان هنا ساهيا لاهيا فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا وأبعد مدى في الضلال ، لأن آلات العلم والعمل قد عطلت وبقى فيه مناقبه ومثاليه ولا قدرة على الزيادة في الأولى ولا النقص في الثانية .

وبعد أن ذكر سبحانه درجات الخلق في الآخرة وشرح أحوال السعداء ، أردفه بتحذيرهم من وساوس أرباب الضلال والخديعة بمكرهم فقال :

( وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره ) أى وإن المشركين قاربوا بخداعهم أن يوقعوك في انفتنة بصرفك عما أوحيناه إليك من الأحكام ، لتتقول علينا غير الذي أوحيناه إليك مما اقترح عليك .

أخرج ابن إسحق وابن مردويه وغيرها عن ابن عباس « أن أمية بن خلف وأبا جهل ورجالا من قريش أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسح

بالهتنا وندخل معك فى دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتمد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرقّ لهم فأنزل الله هذه الآية إلى قوله نصيرا .

وعن سعيد بن جبير قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه فتمتته قریش وقالوا : لاندعك تستلم حتى تلمّ بالهتنا . فحدث نفسه وقال : ما علىّ أن ألم بها بعد أن يدعوني أستلم الحجر والله يعلم إنى لها كاره ، فأبى الله ذلك وأنزل عليه هذه الآية :

( وإذا لاتخذوك خليلا ) أى ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك خليلا ووليا لهم وخرجت من ولايتى .

( ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ) أى ولولا تثبيتنا إياك وعصمتك عما دعوك إليه تقاربت أن تميل إلى ما يرومون .

وخلاصة ذلك -- إنك كمت على أهبة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم فى التحميل والخذاع ، ولسكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون فضلا عن أن تركن إليهم .

وفى هذا تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لم يهجم بإجابتهم ولم يقرب من ذلك . ثم توعده على ذلك أشد الوعيد فقال :

( إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ) أى ولو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهو صلى الله عليه وسلم لوركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره ، لأن الذنب من العظيم يكون عقابه أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم أشد من عقاب العامة ، لأنهم يتبعونهم .

ونظير ذلك من وجه ما جاء فى نسائه صلى الله عليه وسلم من قوله « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » .

وخلاصة ذلك -- إنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك ، وعقدت على

الركون هَمَّكَ ، لاستحقت تضييف العذاب عليك في الدنيا والآخرة ، ولضار عذابك مثلى عذاب المشرك في الدنيا ومثلى عذابه في الآخرة .

وقد ذكروا في حكمة هذا - أن الخطير إذا ارتكب جرماً وخطأ خطيئة يكون سبباً في ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به ، فكأنه سن ذلك ، وقد جاء في الأثر - « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

(ثم لا تجدلك علينا نصيراً) أى ثم لا تجد من يدفع العذاب أو يرفعه عنك . روى عن قتادة أنه قال : « لما نزل قوله : وإن كادوا ليفتنونك الخ قال صلى الله عليه وسلم : اللهم لا تكني إلى نفسى طرفة عين » فينبغى للمؤمن أن يتدبرها حين تلاوتها ، ويستشعر الخشية ، ويستمسك بأهداب دينه ويقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تكني إلى نفسى طرفة عين » .

(وإن كادوا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) أى ولقد كاد أهل مكة يزعمونك ويستخفونك بعداوتهم ومكرهم من الأرض التي أنت فيها ليخرجوك منها ، بما فعلوه من حصرك والتضييق عليك ووقع ذلك بعد نزول الآية وصار ذلك سبباً لخروجه صلى الله عليه وسلم .

(وإذا لا يلبثون خلافاك إلا قليلاً) أى ولو استفزوك فخرجت لا يبقون بعدك إلا زماناً قليلاً .

وفي هذا وعيد لهم بإهلاكهم بعد خروجه بقليل ، وقد تحقق ذلك بإفناء صنائيد قريش في وقعة بدر الثمانية عشر شهراً من ذلك التاريخ .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى هكذا عادتنا في الذين كفروا برسولنا وأدوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم أن يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم ما لا قبل لهم به ، ومن ثم قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » الآية .

(ولا تجد لسنتنا تحويلاً) أى إن ما أجرى الله به العادة لا يتسنى لأحد سواه أن يغيره ولا أن يحوله .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)

### شرح المفردات

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار ، والفسق : شدة الظلمة ، وقرآن الفجر : أى صلاة الصبح ، كان مشهودا : أى تشهد شواهد القدرة وبدائع الحكمة وبهجة العالم العلوى والسفلى ، فمن ظلام حالك أزاله ضوء ساطع ونور باهر ، ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق ، فسبحان الواحد الخلاق ، وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرأى من ظهور ذلك النور ينقلت من خلال الظلام الدامس يذمه بقوة ليضىء العالم بجماله ، ويقظة النوم وحركتهم على ظهر البسيطة وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيوبة للحواس ، والتهجد :

الاستيقاظ من النوم للصلاة ، نافلة : أى فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك ، والمقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء ، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ، زهق : أى زال واضمحل ، نأى بجانبه : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاهها ظهره ، وشاكلته : أى مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ، ويثوسا : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله ، وأهدى سبيلا : أى أسد طريقا وأقوم منهجا .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزازهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به - أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ، وألا يبالي بسعيهم وألا يلتفت إليهم ، فإنه يدفع مكرم وشرمهم ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوا .

### الإيضاح

( أقم الصلاة لدنوك الشمس إلى غسق الليل ) أى أد الصلاة المفروضة عليك بعد دنوك الشمس وزوالها إلى ظلمة الليل ، ويشمل ذلك الصلوات الأربعة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

( وقرآن الفجر ) أى صلاة الصبح ، وقد بينت السنة المتواترة من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلقوه خلفا عن سلف قرنا بعد قرن .

وقد تقدم في سورة البقرة أن المراد بإقامة الصلاة أدائها على الوجه الذي سنه الدين ،  
والتهجج الذي شرطه من توجيه القلب إلى مناجاة الرب والخشية منه في السر والعلن ،  
مع اشتغالها على الشرائط والأركان التي أوضحها الأئمة المجتهدون ؛ والصلاة لب العبادة  
لما فيها من مناجاة الخالق والإعراض عن كل ما سواه ودعائه وحده ، وهذا هو مخ  
كل عبادة ، وفي الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(إن قرآن الفجر كان مشهودا) أي في الفجر تجتمع ملائكة الليل وملائكة  
النهار وتشهدا جميعا ، ثم يصعد أولئك ويقوم هؤلاء ، روى أبو هريرة أن  
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار  
ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم  
وهو أعلم بهم ، كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون »  
وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « (وقرآن النجر  
إن قرآن الفجر كان مشهودا) قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » وقد يكون  
المراد كما قال الرازي - إن الانسان يشهد فيه آثار القدرة وبدائع الحكمة في السموات  
والأرض ، فهناك الظلام الحالك الذي يزيله النور الساطع ، وهناك يقظة النوم بعد  
الخمود والغيوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة في الملك والملكوت ،  
فكل العالم يقول بلسان حاله أو مقاله « سُبَّوح قدوس ، رب الملائكة والروح » .

(ومن الليل فتهجد به) أي واسهر بعض الليل وتهجد به ، وهو أول أمراته  
بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة . روى مسلم عن أبي هريرة « أن النبي صلى  
الله عليه وسلم سئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال صلاة الصبح » وقد ثبت  
في صحيح الأحاديث عن عائشة وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم  
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بعد نومه .  
(نافلة لك) أي إنها مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهي فريضة عليك

ومندوبة في حق أمتك .

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أى اعمل هذا الذى أمرتك ، لتقييم يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى .  
قال ابن جرير : قال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذى يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشقاعة للناس ليرحبهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة في ذلك اليوم .

أخرج النسائى والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : «يجمع الله الناس في صعيد واحد يسمعون الداعى وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فينادى يا محمد ، فيقول ( لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت ) فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله » اه .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى » .  
وروى الترمذى عن أبى سعيد أنخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نقر ، ويبدى لواء الحمد ولا نقر ، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » الحديث .

وسر هذا — أن الهداة فى الأرض وهم الأنبياء ومن سلك نهجهم من الأمة والعلماء لا تشرق قلوبهم إلا بتوجههم إلى الله فى أوقات الصلوات ، فإذا قاموا للخلق داعين أشرقت مرآيا نفوسهم الصافية على من يدعونهم من العباد فنضىء نفوسهم فيستجيبون لدعوتهم ويكون لهم المقام المحمود بينهم والثناء العظيم الذى هم له أهل ، إلى أنهم يحسون فى أنفسهم سرورا ولذة وبهجة ورضا ، فيحمدون مقامهم ، كما حمدهم الناس من حولهم ، والله والملائكة من فوقهم .

لاجرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة ، إذ لشفاعة  
في الآخرة إلا على مقدار ما أوتى المشفوع له في الدنيا من علم وخلق ، ولله في الشفاعة  
ما يشاء من عفوان وإعلاء درجات .

( وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ) أى وقل داعيا :  
رب أدخلني في كل مقام تريد إدخالى فيه في الدنيا وفي الآخرة مدخلا صادقا أى  
يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق في قولك وفعلك ، وأخرجني من كل  
ماتخرجني منه مخرج صدق أى يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق .

وخلاصة ذلك — أدخلني إدخالا مرضيا كإدخالى للمدينة مهاجرا ، وإدخالى  
مكة فاتحا وإدخالى في القبر حين الموت ، وأخرجني إخراجا محفوظا بالكرامة والرضا  
كإخراجى من مكة مهاجرا وإخراجى من القبر للبعث .

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال :

( واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ) أى واجعل لى تسلطا بالحجة والملك ،  
فأتقن المستمعين للدعوة بالحجة ، ويكون للإسلام الغلبة بالاستيلاء على أهل الكفر .  
وقد أجاب الله دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس كما قال : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ  
مِنَ النَّاسِ » وقال : « فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « لَيْسَتْ خَلْفَتُهُمْ  
فِي الْأَرْضِ » .

ثم أمره أن يخبر بالإجابة بقوله :

( وقل جاء الحق وزهق الباطل ) أى قل للمشركين مهددا لهم : إنه قد جاءهم  
الحق الذى لا مرية فيه ، ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان .  
والعلم النافع ، واضمحل باطلهم وهلك ، إذ لا ثبات له مع الحق كما قال : « بَلْ نَقْذِفُ  
بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » .

( إن الباطل كان زهوقا ) أى مضمحلا لا ثبات له فى كل آن .

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : « دخل النبي صلى الله عليه وسلم

حكمة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعنها بعود في يده  
ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ، جاء الحق وما يبدئ  
الباطل وما يعيد .

وفي رواية للطبراني والبيهقي عن ابن عباس « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه  
تضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه فيقول : جاء الحق وزهق الباطل  
إن الباطل كان زهوقاً - حتى مر عليها كلها » .

( ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ) أى ونزل عليك أيها الرسول  
من القرآن ما به يستشفى من الجهل والضلالة وتزول أمراض الشدة والنفاق ، والزيف  
والإلحاد ، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض ، ويحلون  
حلاله ويحرمون حرامه ، فيدخلون الجنة ويتنجون من العذاب ، وفي الخبر « من لم  
يستشف بالقرآن فلا شفاه الله » .

( ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ) لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدا عن  
الإيمان وازدادوا كفرا بالله ، لأنه قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون كما قال :  
« قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ  
عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال : « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ  
فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ  
يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا  
بِهِمْ كَافِرُونَ » .

قال قتادة في قوله : ( ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة ) إذا سمعه المؤمن انتفع  
به وحفظه ووعاه ( ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ) أى لا ينتفعون به ولا يحفظونه  
ولا يعوناه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين اه .

( وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ) أى وإذا أنعمنا على الإنسان عمال وعافية وفتح ونصر ونال ما يريد - أعرض عن طاعتنا وعبادتنا ونأى بجانبه ، وهذا كقوله « فَأَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ذُرَّهٖ مَرَّةً كَآنَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ذُرِّهٖ مَسَّهُ » وقوله « فَأَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَىٰ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » .

( وإذا مسه الشر كان يئوسا ) أى وإذا أصابته الجوائح وانتابته النوائب كان يئوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك ، ونحو الآية قوله « وَلَئِن أَدْقَمْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ » وقوله « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

ولما ذكر حالى الجمی والمهتدين ختم القول ببيان أن كلا يسير على مذهبه فقال : ( قل كل ٭ يعمل على شاكلته ) أى قل إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته وحاله فى الهدى والضلال ، وما طبع عليه من الخير والشر .

( فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ) أى فربكم أعلم من كل أحد بمن منكم أوضح طريقا واتباعا للحق ، فيؤتيه أجره موفورا ، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق ، لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة وما استعدوا له ، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة ، وبمعنى الآية قوله « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ » ولا يخفى ما فى الآية من تهديد شديد ووعيد المشركين .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

## شرح المفردات

في المراد من الروح في هذه الآية ثلاثة آراء :

(١) القرآن وهو المناسب لما تقدمه من قوله : « وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ » ، ولما بعده من قوله « وَلَكِنَّ شَيْئًا لِنَدِّهِمْ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » ولأنه سمي به في مواضع متعددة من القرآن كقوله « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » وقوله « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » . ولأن به تحصل حياة الأرواح والعقول ، إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

(٢) جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمي جبريل في مواضع عدة من القرآن كقوله « نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ » وقوله « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » ويؤيد هذا أنه قال في هذه الآية « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي » وقال جبريل « وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحي .

(٣) الروح الذي يحيا به بدن الإنسان - وهذا قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأتهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعمت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق إلى معرفته ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح وقال بعضهم : لا تسألوه يسمعون ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن الروح فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ويسألونك عن الروح الآية » .

## الإيضاح

( ويسألونك عن الروح ) الذى يحيا به البدن ، أقدم هو أم حادث ؟

(قل الروح من أمر ربي) الأمر واحد الأمور أى الروح شأن من شؤونه تعالى حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه لا يعلمه إلا هو ، لأنكم لا تعلمون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم ، ولا تعلم من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لها إدراك ما هو غير مادي كالروح .

وللعلماء في حقيقة الروح أقوال كثيرة أولها بالاعتبار قولان :

(١) إن الروح جسم نوراني حتى متحرك من العالم العلوي يخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء في الورد والدهن في الزيتون والنار في الفحم ، لا يقبل التبدل والتفرق والتزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت ، واختاره الرازي وابن القيم في كتاب الروح .

(٢) إنه ليس بجسم ولا جسماني ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالي وأبو القاسم الراغب الأصفهاني .

ثم أكد عدم علمه بها بقوله :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى وما أوتيتم من العلم إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحس ، فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس ، ومن ثم قالوا : من فقد حسا فقد علما .

روى أنه لما نزلت الآية قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا ، فنزل قوله «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَأَوْ جَشْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» .

وخلاصة ذلك — إنه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، والذي تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى ولم يطلعكم عليه .

وَلَمَّا سَأَلْنَا لِنَدَّهَبِينَ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا  
 وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ  
 لَسْتُ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ  
 بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا  
 الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا الْكُفُورًا (٨٩)

### شرح المفردات

وكيلا: أى ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل  
 عليه ، وظهيرا: أى معينا فى تحقيق ما يتوكلونه من الإتيان بمثله ، وصرفنا: كررنا  
 ورددنا ، والكفور: الجحود.

### المعنى الجملى

بعد أن امتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء  
 للناس ، وأنه ثبت عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ،  
 لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن  
 شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده - امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنة  
 الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنة فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه  
 منه ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد  
 بينهم وبين هدى الدين بمظاهرهم للرؤساء والعامّة ، وتركهم العمل به اتباعا  
 لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم على الناس .

## الإيضاح

لما ذكر سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا ، بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك) أى والله لئن شئنا نمحون القرآن من الصدور والمصاحف ولا نترك له أثرا ، وتصير كما كنت ، لا تدرى ما الكتاب ولا الإيمان . أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبرانى والبيهقى فى جماعة آخرين .

وعن ابن مسعود قال : « إن هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع وقد أثبتته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال يسرى عليه فى ليلة واحدة فلا تترك منه آية فى قاب ولا مصحف إلا رفعت ، فتصبحون وليس فيكم منه شيء ثم قرأ هذه الآية » .  
وعنه أنه قال : ذهب القرآن رفعه من صدور قارئيه .

(ثم لا تجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لا تجد ناصرا ينصرك ، فيحول بيننا وبين ما تريد بك ، ولا قويا لك فيمنعنا من فعل ذلك بك .  
(الإرحمة من ربك) أى ولسكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتتان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما تسهيل ذلك العلم عليهم ؛ ثانيهما إبقاء حفظه .

(إن فضله كان عليك كبيرا) إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك ومصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم ، وصيرك سيد ولد آدم وختم بك النبيين وأعطاك المقام الحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال :  
(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم وانفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاما ونحو ذلك ،

لا يأتون بمثله وفيهم العرب الفصحاء وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام الخلقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

( ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ) أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة وكررنا الآيات والعبير والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين والجنّة والنار ليدبروا آياته ويتعظوا بها .  
( فأبى أكثر الناس إلا كفورا ) أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة وقطعت ألسنتهم وأخجموا ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها الله بقوله :

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ  
تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا (٩١)  
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَّمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِنُورٍ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا  
(٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ  
لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ  
إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا  
أَنْ قَالُوا أُبَعِثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ  
يَعْمُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى  
بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ

اللَّهُ فَهَوِ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ  
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ؛ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ كَمَا  
خَبَتُ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا  
أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ  
اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ  
أَجَلًا لَارَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ  
خِزَانِ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ، وَكَانَ الْإِنْسَانُ  
قَتُورًا (١٠٠)

### شرح المفردات

الينبوع : العين التي لا ينضب ماؤها ، جنة : أى بستانا تستر أشجاره  
ما تحتها من الأرض ، كسفا: واحدها كسفة كقطع وقطعة لفظا ومعنى ، وقبيلا: أى  
مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا ، والزخرف : هنا الذهب ، وأصله  
الزينة وأجملها ما كان بالذهب ، ترقى: أى تصعد ، مطمئنين : أى ساكنين مقيمين  
فيها ، وخبث : أى سكن لها ، والسعير: اللهب ، وكفورا أى جحودا للحق ، خشية  
الإنفاق : أى خوف الفقر ، والقفور: الشديد البخل .

### المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا على أمرهم—  
أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ويتعترون فى أذبال الحيرة فطلبوا آية من آيات  
ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس « أن أشرف مكة أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهم جالوس عند الكعبة فاتاهم فقالوا يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسير جبالها لنتفج بأرضها ، ونجر لنا فيها نهرا وعيونا نزرع فيها ، فقال لا أقدر عليه ، فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف ( ذهب ) فيغنيك عنا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتي قومك بما يسألونك ؟ فقال لا أستطيع ، قالوا إن كنت لا تستطيع الخير فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب ، فقال عبد الله بن أمية الخزومي وأمه عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا والذي يُخلف به ، لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتي بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدري أتؤمن بك أم لا ؟

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهي استبعادهم أن يرسل الله بشرا رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من قومه بأن الهداية والإيمان بيد الله ولا قدرة له على شيء من ذلك ، ومن يضل الله فلا هادى لهم وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ودرسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصي ، وإنكار البعث والحساب وهم يعلمون أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى ، ثم بين أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراء الأنهار والعيون وتكثير الأموال واتساع المعيشة لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد ، فالإنسان بطبعه شحيح كثر نخيل .

## الإيضاح

علمت مما سلف أنهم طلبوا منه آية من ست ، وها هي ذي :

(١) ( وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ) أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبي سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » الآية .

(٢) ( أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الأنهار خلالها تفجيرا ) أى .

أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تفجر الأنهار خلاله تفجيرا سقيه .

(٣) ( أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ) تقول العرب : جاءنا بثريد

كسف أى قطع من الخبز : أى أو تسقط علينا جرم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت في قولك : « أَوْ تُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — أو تسقط السماء علينا متقطعة ، ونحو الآية قوله : « اللَّهُمَّ إِنْ

كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا : « أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ »

(٤) ( أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ) أى أو تأتي بالله والملائكة نقابلهم معاينة

ومواجهة قاله مجاهد وعطاء ، ونحو الآية قولهم : « لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

(٥) ( أو يكون لك بيت من زخرف ) أى أو يكون لك بيت من ذهب ،

روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرها .

(٦) (أوترقى في السماء وإن تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، ولئن صدقتك من أجل رقيق وحده ، بل لا بد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقتك .

( قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ) أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسول أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم على حسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخاصة ذلك — سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتهم ، وإن شاء لم يجبكم . وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتهم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا؟) أى وما منع مشركى قريش وهم من حكيت أباطيالهم — من الإيمان بك حين مجىء الوحي المقرون بالمعجزات التى تستدعى الإيمان بنبوتك وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة .

ونحو الآية قوله : « أكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » وقوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا؟ » الآية . وقال فرعون وملؤه : « أَنْتُمْ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ؟ » وكذلك قالت الأمم لرسولهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَنَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذا كرا وجه الحق منها إلى المصلحة بقوله :  
 (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا  
 رسولاً) أى لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقومون فيها كما  
 يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتلقى الشرائع منهم - لنزلنا عليهم من السماء رسلاً  
 من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة  
 الملك لا تصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب ، والتفاهم معهم لبعدهما  
 ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ،  
 لأن الله قد وهبهم نفوساً زكية ، وأيدهم بروح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية بها  
 يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم  
 إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة ، وجليل تلك النعمة بقوله : « لَقَدْ مَنَّ  
 اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وقوله : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ  
 مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا  
 وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مِمَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »  
 وإجمال القول في ذلك - أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس  
 التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشراً حتى يستطيعوا  
 أداء الرسالة كما قال تعالى جده : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا  
 عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ » .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دخية الكلبى مرارا عدة ، فقد  
 صح أن أعرابيا جاء وعليه وعشاء السفر فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن  
 الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من  
 الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

( قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ) أى قل لهم : إن الله لما أظهر المعجزة على وفق دعواى كان ذلك شهادة منه على صدقى ، ومن شهد له الله فهو صادق ، فادعواكم أن الرسول يجب أن يكون ملكا تحكم منكم وتعنت .

وخلاصة ذلك — إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتمكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام كما قال سبحانه : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

( إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ) أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه مادعاهم إلى إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيدائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لاعمق الحكمة ، ولاسلطان لأحد من خلقه فى شىء فقال :

( ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ) أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشده ، ومن يضله لسوء اختياره وتدسيتها نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم .

( ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصمًا ) أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور — عميا وبكا وصمًا كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون

ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه ، فهم في الآخرة لا يبصرون ما يقرّ أعينهم ،  
ولا يسمعون ما يلد مسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم كما قال : « وَمَنْ كَانَ  
فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا » .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « قيل يا رسول الله ،  
كيف يمشى الناس على وجوههم قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم  
على وجوههم » .

وروى الترمذى : « إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة ، وركبانا ،  
وعلى وجوههم » .

وإنا نرى فى الدنيا من الحيوان ماهو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف  
كالحيات وهوام الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى  
الوجه فى الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يمشى على وجهه .  
والخلاصة — إنهم يعيشون فى أقبح صورة وأشنع منظر قد جمع الله لهم بين  
عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل  
فى الدنيا بمن يبالغ فى إهائته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ  
فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ » .

( ماؤاهم جهنم كلما خبت زديناهم سميرا ) أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون  
منقلبهم ومصيرهم جهنم ، كلما سكن لبيها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق  
ما تتعلق به وتحرقه ، زديناها لها وتوقدا بأن تعيدهم إلى ما كانوا عليه فاستعمر وتتوقد .  
أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال :  
إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شيء صارت جمرات تنهوج فذلك  
خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عاودتهم اه .

وكان هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكررها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث أنكروها برهاننا .

ثم بين علة تعذيبهم لعله يرجع منهم من قضى بسعادته فقال :

( ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا ) أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم : أبعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرى - استنكارا منهم وتعجبا من أن يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

( أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ) أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداء على غير مثال سابق وأقامهما بقدرته - قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فناهم ، وكيف لا يقدر على إعادتهم ، والإعادة أهون من الابتداء .

وبعد أن ثبت أن البعث أمر ممكن الوجود فى نفسه ، أردف ذلك بأن حصوله وقتنا معلوما عند الله فقال :

( وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ) أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لا بد من انقضائها، لا يعلمها إلا هو كما قال : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ » .

وخلاصة ذلك - إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا وهو يوم القيامة الذى لا شك فيه ، فلا وجه لإنكاره .

( فأبى الظالمون إلا كفورا ) أى وبغى إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تماديا فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

( قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لمسكنم خشية الإنفاق ) المراد من الإنفاق هنا الفقر كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة وإليه ذهب الراغب فقال : يقال أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى ، أى قل لهم أيها الرسول : لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكنم خشية الفقر : أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لا تنفخ ولا تنفد أبدا .

وقصارى ذلك — إنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على الشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لا ينجيكم إلى ما طلبتم من نبيه صلى الله عليه وسلم من بساتين وعيون تنبع ، لا بخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة أن يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ومن ثم لم ينزل ما اقترحتموه . ( وكان الإنسان قتورا ) أى وكان الإنسان بخيلا ممنوعا بطبعه كما قال « أَمْ كُنتُمْ نَصِيبًا مِنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء » ( أخذ ) الليل والنهار ، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يفيض ما فى يمينه .

وإجمال المعنى — إن الله لم يحب محمدا إلى ما طلبتم ، لا هوأنا لنبيه ، ولا لأنه ليس بنبي ، ولا بخلا منه ( حاشاه ) بل لحكمة منه ، فربما كان وفير العطاء إذا نزل على غير وجهه مصايب على الناس ، فأما أنتم فنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وادأرستموها لم تفيموا إلا الإمساك ، ومن ثم لا يسلمكم مفاتيح خزائنه لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفخوا خلقه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْنَسَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ . وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَ بِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) .

### شرح المفردات

مسحورا: أى مخبول العقل، بصائر: أى حججا وبيئات واحدها بصيرة أى مبصرة بينة، مشبورا: أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد، قال الزجاج يقال ثبر الرجل فهو مشبور إذا هلك، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة، كما قال تعالى « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَاتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَاذْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » أن يستفهم: أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها، واللفيف: الجمع العظيم من أخلاط شتى من شريف ودنىء ومطيع وعاص وقوى وضعيف، وكل شيء خلطته بغيره فقد لفته .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا - ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتهم وأعظم منه ولم تُجد فرعون وقومه شيئا، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات وكفاكم الآيات العلمية التي أنزلها على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن لم تؤمنوا بمد ظهور تلك الحجج أهلكم كما أهلك

فرعون بالغرق ، وفي ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

## الإيضاح

( ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ) أى ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه حين أرسل إلى فرعون وقومه ، فلم يؤمنوا بها كما قال تعالى « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » وقال « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

وقد ذكر سبحانه في كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

( ١ ) إنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

( ٢ ) انقلاب العصا حية .

( ٣ ) تلقف الحية حبالهم وعصيمهم على كثرتها .

( ٤ ) اليد البيضاء .

( ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ) الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

( ١٠ ) شق البحر .

( ١١ ) انفلاق الحجر في قوله « أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ » .

( ١٢ ) إظلال الجبل في قوله « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ » .

( ١٣ ) إنزال المن والسوى عليه وعلى قومه .

( ١٤ ، ١٥ ) الجذب ونقص الثمرات في قوله « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ

بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ » .

( ١٦ ) الطمس على أموالهم من الخنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا في المراد من هذه التسع . أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور

وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس إنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال عليه السلام : لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ، وأتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت ، فقبلا يده ورجله وقال تشهد أنك نبي ، قال فما يمنعك أن تسلمنا ؟ قال إن داود دعا الأيزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود .

قال الشهاب الخفاجي وهذا هو التفسير الذي عليه المعول في الآية .

ثم خاطب نبيه فقال :

( فاسأل بنى إسرائيل ) أى اسأل بنى إسرائيل الذين كانوا فى عصرك وآمنوا بك كعبد الله بن سلام وأصحابه سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنينتك و يقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم فى كتابهم .

( إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا ) أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إني لأظنك يا موسى مخلص العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل حصيف الرأى .

( قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ) أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التي أريتكمها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة لى على صدق وصحة قولى إني رسول الله ، يعنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى

بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها أن من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض .

( وإني لأظنك يا فرعون مشهورا ) أى وإنى لأظنك يا فرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

( فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ) أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يبقى منهم أحدا ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفضع إخراج .

( وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ) أى ونجينا موسى وبنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

( فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم نفيفا ) أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة مختلطين أتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا

(١٠٥) وَقُرْ آنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا

(١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا ، إِنْ

كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لِمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ

جُشُوعًا (١٠٩) قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا  
(١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ  
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلَّةِ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا (١١١).

## شرح المفردات

الحق : هو الثابت الذي لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتمظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة، وفرقناه : أى أنزلناه مفرقا منجما ، والمكث ( بالضم والفتح ) : التؤدة والثأنى، والخروج: السقوط بسرعة ، والأذقان واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين ، ادعوا الله أو ادعوا الرحمن : أى سموه بهذين الاسمين ، خفت الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت : القوم تساروا فيما بينهم .

## المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دال على صدق الرسول بقوله « قل لمن اجتمعت الإنس والجن » الآية ، ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لا حاجة إلى شىء سواه ، وبأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المعجزات التى اقترحتها مؤمنوها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ولم يكن ذلك من الحكمة التى أرادها ، لعله أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا - عاد هنا إلى تمظيم حال القرآن وجلالة قدره ، وبيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرقا ليسهل حفظه . وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا فإن من قبلكم من أهل

الكتاب إذا تلى عليهم خروا له سجداً وبكياً؛ ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتُم الله أو ناديتُم الرحمن فالأمران سواء ، ثم قفى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والنفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً .

أخرج ابن جزير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم فدعا الله تعالى فقال فى دعائه يا الله يا رحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابى ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » الآية .

وعن الضحاک أنه قال : قال أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت .

### الإيضاح

(وبالحق أنزلناه) أى وأنزلنا عليك القرآن متضمناً للحق ، فقيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوجدانية وحاجة الناس إلى الرسل لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظاراً ليوم الحساب والجزاء .

(وبالحق نزل) أى ونزل إليك محفوظاً محروساً لم يشب بغيره فلم يزد فيه ولم ينقص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال :

(وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من

أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشراً بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذراً لمن عصانا فخالف ذلك .

( وقرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ) أى وآتيناك قرآنا فرقناه أى نزلناه مفرقا منجما ، وقد بدى بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه ، ويكون ذلك أعون على تفهم معناه . أخرج البيهقي فى الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا ، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى ، والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه . وفائدة قوله : ونزلناه تنزيلا بعد قوله فرقناه - بيان أن ذلك التنزيل لمقتض وهو التنزيل على حسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

( قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ) أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن تؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا - آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك . ثم علل عدم المبالاة بهم واحتقار شأنهم بقوله :

( إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ) أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا - يخرون لله سجدا شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم : تنزه ربنا عن خلف الوعد إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة - إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وازدراء بشأنهم .

( ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ) أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم ما فيه من العبر والمواعظ خشوعاً وخضوعاً لأمره وطاعته .

وقد جاء في مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة ؛ فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى » .  
وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ، ولا اجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التميمى أنه قال : إن من أوقى من العلم ما لم يبكه خَلْق أن قد أوقى من العلم ما لا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال ( ويخرون للأذقان يبكون ) .

ثم رد على المشركين المنكرين إطلاق اسم الرحمن عليه عز وجل فقال :  
( قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سمو الله أيها القوم أو سمو الرحمن فبأى أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقدیس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض ، وهذان الاسمان منها :  
روى مكحول « أن رجلاً من المشركين سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأُنزل الله الآية » .

ثم أمره بالتوسط في القراءة فلا يجهر بصوته ولا يخافت به فقال :  
( ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ) أى ولا تجهر بقراءة تلك

فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال: «نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مخفف بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به» .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت في قراءته ويقول أناجى ربي وقد علم حاجتى ، وعمر كان يجهر بها ويقول : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان ، فلما نزلت الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا .

ولما أمر الله رسوله ألا يناديه إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدن) أى وقل لله ذى الجلال والكمال ، الحمد والشكر على ما أنعم على عباده من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

(١) إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفاته - تنزه ربنا عن ذلك - ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

(٢) إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، وكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان .

(٣) إنه لم يكن له ولى من الذل ألكم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته .  
والخلاصة — إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله  
فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس  
نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتغترف أيها العبد من  
مناهلها ، وتعلم أنه لا يحاييك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبي  
من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

( وكبره تكبيرا ) أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول  
أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .  
وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

(١) بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .

(٢) بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزّه عن

صفات النقص .

(٣) بتكبيره فى أفعاله ، فتمعنتد أنه لا يجرى شىء فى ملكه إلا على وفق

حكّمته وإرادته .

(٤) بتكبيره فى أحكامه ، بأن تتمعنتد أنه ملك مطاع له الأمر والنهى والرفع

والخفض ، وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل

من يشاء .

(٥) تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف

إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول

« آية العز ( الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ) الآية » . وعن ابن عباس أنه قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين

يحمدون الله فى السراء والضراء » .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : « كان رسول الله صلى

الله عليه وسلم يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح ، الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات » .

## بجمل ما حوته السورة من الأغراض

- (١) الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
- (٢) تاريخ بني إسرائيل في حالى الارتقاء والانحطاط .
- (٣) حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دؤها كما ذهبت دولة بني إسرائيل .
- (٤) بيان أن كل ما فى السموات والأرض مسبح لله .
- (٥) الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
- (٦) الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
- (٧) الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٨) قصص سجد الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .
- (٩) تعداد بعض نعم الله على عباده .
- (١٠) طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم وإخافهم فى ذلك .
- (١١) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتبجد فى الليل .
- (١٢) بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .
- (١٣) قصص موسى مع فرعون .
- (١٤) الحكمة فى إنزال القرآن منجما .
- (١٥) تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .